الفصل الثاني

المصادر التي استقى منها ابن سينا علمه

obeikandl.com

obeikandl.com

بين العلمين: العربي واليوناني

نظرة على كتب ابن سينا العلمية

نظرة على كتب ابن سينا الطبية

obeikandl.com

obeikandl.com

هناك سؤالٌ قد تكون له وجاهته وأسبابه: ولم العودة، دوماً، إلى اليونان وعلومهم حال دراسة العرب وعلومهم ؟ لكن قراءة بعض صفحات في كتب تعوّل على دراسة التراث قد تغنينا عن مشقة اختزال الإجابة، ومن ثم ضياع منطق الحوار.

وما دمنا بصدد دراسة " علمية " ابن سينا، فغن هذه الدراسة لا بد أن تدفعنا نحو فهم ودراسة " أصول " العربي، تلك الأصول التي ستجعلنا وجهاً لوجه أمام " التراث اليوناني " في الفلسفة الإسلامية، وفي هذا الشأن جاء قول سانتيلانا " إذا لم يكن من السائغ لذي أدب من الإفرنج أن يجهل ما كان عليه حكماء اليونان، فكيف يسوغ ذلك لمصري ومسلم ؟، والعلم الإسلامي مؤسس منذ البدء على العلوم اليونانية وعلى أفكار اليونان، بل وعلى " أوهام " اليونان، حتى لا يكاد يفهم آراء حكماء الإسلام ولا مذاهب المتكلمين ولا بدع المبتدعين من لم تكن له بحكمة اليونان كعرفة شاملة وليس مجرد إلمام، وهذا لا يحتاج إلى برهان، بل نعوّل فيه على العيان، فصار هذا التاريخ والحال كالمعرفة الضروية لتاريخ التمدن الإسلامي، لا يسع أحداً من هذه الأمة إهمالُه، ولا طالب الحكمة جهلَه[1].

والعلم، على وجه العموم، لم ينبت قط عن فراغ ؛ فقد نهل العصر الحديث من عصر النهضة، وعصر النهضة أخذ عن العرب، والعرب أخذوا عن الإغريق والهنود، والإغريق أخذوا عن قدماء المصريين، ولو أن الكتابة ابتكرت قبل قدماء المصريين لعرفنا عمن أخذ المصريون القدماء علومهم، ولذا فإننا إذا ابتغينا خوض تاريخ العلم عند العرب فسوف نجد أنفسنا مضطرين، في كل خطوة نخطوها، إلى

١ – د. زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ط٧ التمهيد

العودة إلى الإغريق، في محاولتنا تمييز ما أضاف العرب إلى علم الإغريق من التوضيح أو التنقيح أو الإضافة[١].

ونحن نسعى اليوم لتأصيل معارفنا، فيجب ألا نغفل تجربة أسلافنا مع اليونان، فمما لا شك فيه أن التفكير الفلسفي والعلمي في الإسلام قد أخذ الكثير من اليونان، وإنه قد تطور بفضل ما أخذه عن غيره وما أضافه من صميم ذاته حتى بلغ أوج ازدهاره في عصر العباسيين، وكما أخذ العرب عن اليونان من بدء دولتهم، فقد أخذت أوروبا عن العرب، ومن ثم اليونان، في مطلع عصر النهضة[٢].

وهناك خلاف بين الباحثين حول من له السبق في التأثير: هل سبق الشرقيون اليونان ؟، أم سبق اليونان الشرقيين ؟ !!! لكن هناك اتفاقاً ورأياً مشتركاً بأن صلات علمية وفلسفية قدّ قامت بين فكر الشرق وفكر اليونان، وفي الوقت نفسه يكاد الرأي القائل بأخذ الشرقيين عن اليونان أن تكون له الغلبة والحجة القوية، وفي جانب من هذا يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: " من حيث إننا لا نعرف تاريخَ المذاهب الفلسفية باليقين وتحديد الزمن الذي أوجدتْ فيه، فإننا لا يمكننا أن نعرف إنْ كان الفكر الشرقي هو الذي أثّر في الفكر اليوناني أم أن العكس هو الصحيح، وإننا لنجد في العصور الوسطى أنه قد قامتْ في الشرق فلسفة كانت في الواقع صورة أخرى، لحدٍ ما، من الفلسفة اليونانية، وهي الفلسفة الإسلامية، وهذه الفلسفة

١ – مجلة عالم الفكر. العدد الرابع ١٩٨٥م الكويت ص١٩٥

٢ – د.أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية. القاهرة. مطبعة الحلبي ١٩٥٤م ط١ ص ح

الإسلامية قد أثرت بدورها وانتقلت إلى الأوروبيين، ومعنى هذا أنه كانت هناك صلاتٌ بين الشرق والغرب لا يمكن نكرانها ".[١]

لقد كان القرن السادس قبل الميلاد عصر " فوران " فلسفي في أماكن كثيرة، ويمكن أن ندخل، بدرجة كبيرة من صدق الاحتمال، في هذا العصر فلاسفة منفصلين ومتناقضين مثل لاوتز Laotz[٢] في الصين، ومثل زرادشت Zarathustra[٣] في

---

١ – د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني. بيروت ١٩٧٩م ص١١، د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي. سلسلة عالم المعرفة. مارس ١٩٧٨م ص١٢٢: ١٤٩، د. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص٥

٢ – هو الفيلسوف الصيني لاو تزو Lau Tzu من أسرة لاو دان الصينية ذات التاريخ الفكري، الاجتماعي تحديداً، في الصين. ويعد لاو مؤسس " الطاوية " حيث عاصرت الكونفشيوسية كما عاصر لاو كونفشيوس. أقام لاو فلسفته الأخلاقية على المذلة وعدم الاعتداد بالنفس، وأعلن ثلاثة مباديء لسكون النفس: الرحمة والبساطة والاقتصاد / التواضع. ولد لاو العام ٤٧٦ قبل الميلاد في مقاطعة تشو الصينية، ويُذكر أنه عاش ستين عاماً... والبعض يذكر أنه عمّر حتى المأتين !!!. ويدير باحثون تاريخ الفكر في الشرق الأقصى القديم حول ثلاث شخصيات: الأولى: كونفشيوس صاحب المنهج الاجتماعي، والثانية: لاو تز صاحب المنهج الصوفي، والثالثة: موت تزو صاحب المنهج النفعي على الصعيدين الاجتماعي والسياسي.

٣ – هو زرادشت بن يورشب، ينسب لقبيلة ستياما، ذو أصول أزربيجانية، أصله القريب من إيران. ولد في القرن السادس قبل الميلاد. وكان عصره عصر عبادة الأصنام وسيطرة السحر، والشعبذة، على مواطنيه. كان زرادشت ذا قدرة على العمل الاجتماعي، وقد تمثل ذلك في انخراطه في الجندية دفاعاً عن بلاده، ثم تفرغه لعلاج المرضى، عامة، ومصابي الحروب خاصة. وعلى المستوى الفكري / الفلسفي، حاول زرادشت فهم " لماذا " تغرب الشمس فيحل الظلام بعد النور، وانتهى إلى أن العالم يتكون من " خير " و " شر " كما يتكون اليوم من " ليل " و " نهار " ومن " نور " و " ظلام "، ما يعني، برأيه أن الخير لا يمكن أن يكون شراً،= =وأن الشر لا يمكن أن يكون خيراً بحال. وهذا كله مهّد لقيام فكرة الاثنينية في محاولة لتفسير الوجود أخلاقياً.

إيران، والمؤلفين المجهولين لعديد من الأوبانيشادا، وهي سفر من أسفار الفيدا في الهند، والتثنية وأشعياء في المنفى الإسرائيلي، وعدداً من الفرديين المختلفين والمتناقضين تماماً في أماكن مختلفة من العالم المتحدث بالإغريقية، وعلى ما كان الاهتمام باليونان فإنه لا يوجد، افتراضاً، أي دليل يمكن تسميته " فلسفة " وجدت في أوقات قبل ذلك. لقد كانت هناك ومضاتٌ دقيقة من النظر الفلسفي في أعمال هيزيود Hesiod وفي تلك التي تسمى بالأناشيد الهوميرية، وفي هذه الأقوال المبتورة التي تنسب إلى أورفيوس Orpheus وأتباعه، ولكننا نفتقر إلى أي ارتباط عقلي، أو أي اهتمام بإيجاد منهج عقلي، يميز بين الحقيقة والخطأ.[١]

لقد بدأ مؤرخو الفلسفة يميلون إلى القول بأن نشأة الفلسفة في بلاد اليونان، في القرن السادس قبل الميلاد، ليس بحقيقة نهائية حاسمة بقدر ما هو افتراض " عملي " ونقطة بدء مؤقتة في البحث نسلّم بها لأن الوثائق الخاصة بعلوم الحضارات الشرقية القديمة وفلسفتها ليست وافية ولا هي واضحة [٢] بالقدر الذي يسمح بأن نقرر بشكل حاسم أن بلاد اليونان هي مهد الفلسفة ومبدأ تاريخها وإنها " أرض المعجزة "[٣]. وإلى هذا الرأي يذهب المؤرخ الفرنسي الكبير إميل برييه حيث يقول: إذا كنا نبدأ تاريخنا بـ " طاليس "[٤] فليس معنى ذلك أننا نتجاهل التاريخ القديم الذي تم فيه

١ – د. علي سامي النشار: هيراقليطس. فيلسوف التغير. دار المعارف. مصر ١٩٦٩م ص٥، ٦

٢ – د. الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص١٧، ١٨

٣ – جورج سارتون: تاريخ العلم ج١ من الترجمة العربية. دار المعارف. مصر ١٩٥٧م ص٣٤٧

٤ – هو أول فلاسفة اليونان، وواحد من " أعمدة " الفكر الإنساني، عاش ما بين عامي ٦٣٥، ٥٤٥ قبل الميلاد. اعتُبر أحد الحكماء السبعة، بل هو أول من لقب بـ " الحكيم "، كما هو أول من تكلم في كسوف الشمس وفي أصل الوجود الذي أرجعه للماء و " الرطوبة " !!! عاش حياة متفردة متوحدة أوقفها على التأمل الذي تفرغ له بعد تركه السياسة.

تكوين الفكر الفلسفي، وإنما بسبب عملي صرف هو أن الوثائق التي كُتبت عن حضارات ما بين النهرين ليست كافيةً وينقصها الوضوح، كما أن الوثائق المتعلقة بالمجتمعات البدائية لا تكفي بدورها في إرشادنا عن اليونان في طورها البدائي.[١]

وفي هذا الاتجاه يسير العالم المؤرخ الكبير الدكتور الهندي رادا كريشنان في مقدمته لكتابه الذي اشترك فيه مع نخبة من كبار علماء الهند وفلاسفتها عن تاريخ الفلسفة الشرقية والغربية، حيث يقول: إنه يصدق على تاريخ الفلسفة ما يصدق على العلم إذ يصفه أحد كبار شعراء الفرس بأنه أشبه بمخطوط قديم فُقدت أولى صفحاته وآخرها، ومنذ أدرك الإنسان مستوى الوعي بوجوده وبالعالم وهو يحاول أن يكتشف هذه الصفحات المفقودة.[٢]

وفي محاولة الباحثين تحقيق تلك الصفحات، تمسك أكثرهم بـ " المعجزة اليونانية " وقالوا إن منشأ الفلسفة هو بلاد اليونان، وأقدم من تمسك بهذا الرأي فلاسفة الإغريق أنفسهم ومؤرخوهم، وعلى رأس هؤلاء القدماء أرسطو الذي أرجع الفلسفة إلى طاليس في القرن السادس قبل الميلاد، ومنهم أيضاً ديوجين لايرس[٣]، غير أنه أورد في مقدمته لمؤلفه المهم " حياة ومذهب وأقوال عظماء الفلسفة " الرأي المخالف الذي ينسب الفلسفة إلى الشرقيين، كما أنه يذكر أن من أنصار هذا الرأي

---

١ – E.prehier. Historie de La Philosophie. Introduction. p٦

٢ – Redha Krishnan ; History Of Philosophy Eastern and western ١٩٥٩ preface

٣ – هو ديوجين الكلبي، فيلسوف إغريقي عاش مابين عامي ٤١٢، ٣٢٣ قبل الميلاد. ولد بمدينو سينوبة، التركية حالياً، عاش أولاً في مدينة كورينت، وانتهى إلى مدينة أثينا. تتلمذ على يد لأنتيسِتنيس أحد تلاميذ سقراط. عاش الرجل حياةً طبيعية، ولم يعتمد على مباهج المدنية، وآمن بأن الفضيلة تظهر في الأفعال وليس النظريات. مثلت حياته محاولة فردية لهدم قيم المجتمع ومؤسساته التي كان يرى أنها " فاسدة ".

أرسطو والفيلسوف المؤرخ السكندري سوتيون، اللذين نسبا الفلسفة للأجانب ممثلين في الفرس والكلدانيين والهنود، لكن ديوجين لا يلبث أن يعود فيفند هذا الرأي الذي نسبه، خطأ، إلى أرسطو، ويقرر بعد ذلك أن هؤلاء المؤلفين جميعاً قد نسبوا الفلسفة إلى الأجانب، عني الفُرس والكلدانيين والهنود، عن جهل. ويضيف أن سايوس بن أمويولوس هو صاحب أول ثيوجونيا، وأن لينوس بن هرمس هو أول من وضع كوزمولوجيا أورد فيها وصف مسيرة للشمس والقمر ونشأة الحيوان والنبات. وهكذا فإن كل هذا الطرح يؤكد أن اليونان هم، بعد الذي تقدم، مبتدعو الفلسفة.

ويحتل الرأي الذي يقول إن أصل الفلسفة هم اليونان، يحتل مكان الصدارة " فإننا لا يمكن أن نتحدث عن فلسفة لدى المصريين أو البابليين، أما الذين يمكن أن ننسب لهم فلسفةً من القدماء فهم الهنود، ولكننا، على الرغم من ذلك، لا يمكن أن نرجع الفلسفة اليونانية إلى الهنود، بل الأقرب إلى الحقيقة أن نقول إن الفلسفة الهندية هي التي تأثرت بالفلسفة اليونانية، فقد ظهر للباحثين أن السنسكريتية الهندية قد أخذت من الفلسفة اليونانية، كما أن تصوف البوذية وتصوف أهل الهند وأيضاً الأوبانيشادا، إن كانوا قد أثروا في اليونان إلا أن تأثيرهم كان ثانوياً لا يصل لدرجة أن يكون مصدراً للفلسفة اليونانية "[١].

وبدراسة المجتمع اليوناني القديم من منظور اجتماعي وسياسي وفكري، بل وعقدي، وكذلك دراسة المجتمعات الشرقية القديمة الأخرى من نفس المنظور، يمكن أن نقدر منطقية هذا الرأي الذاهب إلى جعل اليونان ذوي سبق في مجال

---

١ – J. Purnet ; Early Greek Philosophy. Lonon ١٩٤٩ p٣٨ وأيضاً: د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص٦: ١١

الفلسفة والعلم، فإننا " يمكن من، جهة أخرى، أن نرجع الفلسفة، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، أي باعتبارها تفكيراً منطقياً يهدف إلى أن يفسر الكون ويعرف سر الحياة الإنسانية، إلى اليونان لأسباب اجتماعية وعوامل فكرية كانت متوفرة عند اليونان، ولم تكن كذلك عند الشرقيين القدماء "[١].

وأهم هذه الأسباب الاجتماعية هو تمتع الإغريق بحُرية لم يكن لها، وقتئذ، مثيل في البلاد المعاصرة للإغريق، ولعل سبب تمتع الإغريق بهذا القدر النادر من الحرية أن يكون راجعاً إلى عدم تقيّدهم بـ " سلطة " معتقد ديني كذلك الذي ساد المجتمعات الشرقية القديمة ؛ فقد كانت مركزية الحكم في الممالك الزراعية في الشرق القديم تضع السلطة في يد ملك، أو فرعون، تسانده طبقة من الكهنة تضفي على حكمه طابعاً إلهياً. ولعل هذه المركزية في النظام السياسي، وكذا هذا الطابع التقديسي للحكم والحاكم أن يكونا من إفرازات نظام الزراعة المعتمد على دقة التصرف في الماء لضمان ري الأرض على مدار السنة، وهذا معروفٌ وجوده في مصر وبلاد ما بين النهرين. ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن يتْبع هذه المركزية في الاقتصاد والسياسة قيام / فرض " عقيدة " رسمية واحدة للدولة، وتكون من القوة بحيث لا يسهل على أحد الخروج عليها ولا حتى مجرد نقدها بحال !!! على غير ما كان عليه الأمر في بلاد اليونان.

أما الطابَع الفكري الذي توصل إليه اليونان واختصوا به دون بقية شعوب الشرق القديم، فهو اكتشافهم لمفهوم العلم حتى بمعناه الحديث، فقد أدركوا أن العلم إنما يتلخص في وضع القوانين والنظريات التي من شأنها أن تفسّر مجموعة من الظواهر الجزئية، كما كان بحثهم، دوماً، لا يقف عند حد وصف الظاهرة الجزئية

---

١ – د. الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص١٠: ١٥

فقط، بل كان يسعى إلى ربطها بغيرها لأجل الوصول إلى العلة المفسرة لهذه الظاهرة موضع الدراسة، بمعنى أن هناك جهداً معرفياً قام لأجل معرفة القانون الكلي الذي يمكن للعالم أن يفسر به الجزئيات الكثيرة المشاهَدة على أرض الواقع[١].

إن فكرة العلم النظري كانت واضحةً لفلاسفة اليونان، كما أن علومهم تطورت عن مرحلة المعرفة التجريبية التي كانت عند الشرقيين أقرب ما تكون إلى " قواعد " لحل المشكلات العملية، فمما لا شك فيه أن فلكيّ اليونان قد استفادوا من حسابات البابليين وطرقهم في التنبؤ بالخسوف، لكن الفلك في بابل بقي يراوح مكانه في مرحلة تجريبية بحتة، أما المرحلة العلمية فقد بدأت، عند اليونان، منذ القرن السادس قبل الميلاد، وذلك في مدرسة فيثاغورث التي قدمت، في العام ٥٢٣ قبل الميلاد، وفي عصر قمبيز، أول بحث علمي له تعلق بالفلك. ثم استطاع اليونان، خلال جيلين أو ثلاثة أجيال، أن يستنتجوا من معلوماتهم في الفلك نتائج عن كروية الأرض ودورانها حول الشمس، وكذا استنتجوا نظرياتٍ أخرى لها تعلق بالكسوف، ما مهّد لتخليص علم الفلك من الطابع الأسطوري التنجيمي الذي لازمه طويلاً.

إنه برغم أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى اختراع الكثير من الآلات العملية كالمضخة والشادوف، لكن الثابت أن هذه الاختراعات، على أهميتها، لم تثر فيهم همة " التفكير " في وضع " نظريات " في الطبيعة كالذي توصل إليه اليونان وقالوا، على سبيل المثال، إن الطبيعة تكره الفراغ. !!! كذلك استعمل المصريون الميزان قبل أن يضع أرشيميدس قوانين الوزن بآلاف السنين، ألا أن الجديد الذي أتى به أرشيميدس أنه وضع " النظريات " المفسرة لهذه العملية، ثم قدم النتائج التي

---

١ – د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص١٦: ٢٩، د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص١٢٢ وما بعدها

توصل إليها في نسق منظم من القضايا المرتبطة ببعضها ارتباطاً منطقياً. وقد تبين اليونان، أنفسهم، هذه الصفة / السمة في علومهم، صفة / سمة استخراج الأساس النظري الذي يفسر النتائج التي يتوصلون إليها، على نحو ما ذكر أرسطو " إن الوصول إلي القول بأن دواء معيناً قد شفى مرضاً معيناً ويشفي هذا المرض دوماً فهذا حكمٌ عام، وهو أمرٌ يرجع إلى الفن "... كما وصف أرستوكسينوس فيثاغورث بأن علمه، يقصد فيثاغورث، في الرياضيات قد تجاوز مجرد حل عمليات العد والتجارة... كذلك يذكر ديمقريطس أنه قد تفوق على المصريين القياسيين[١].

إن الفلاسفة المسلمين إذا كانوا قد تأثروا بأفكار من سبقهم، فإنهم، بدورهم، قد أثّروا في تفكير من جاء بعدهم، ولكن الخطأ، كل الخطأ، هو التطرف والغلو في كل من الموقفين: موقف التأثر وموقف التأثير، فثابتٌ، كل الثبوت، أن مفكرينا قد أخذوا الكثير من أفكار الأمم التي سبقتهم وخاصة اليونان، والتأثر علامة من علامات الصحة الفكرية لا المرض[٢].

ويستطيع الدارس للفلسفة اليونانية أن يميز في مراحل العلم اليوناني بين ثلاث مراحل، فيما يرى أتسلر،:

المرحلة الأولى: مرحلة الاتجاه نحو " الطبيعة ".

---

١ – د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي ص١٢٢ وما بعدها، د. علي سامي النشار: هيرقليطس ص٢٢٩، د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص٢٠، ٢١، ٧٠، ٢٦٥: ٣٥٠، د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص١٠٦: ١١٤

٢ – د. عاطف العراقي: المذاهب. التصدير من الطبعة الخامسة، د. عاطف العراقي: النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ص١٧٦ وما بعدها، د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ص٢٦ وما بعدها

المرحلة الثانية: مرحلة الاتجاه نحو " المعرفة ".

المرحلة الثالثة: مرحلة الاتجاه نحو " الذات ".

وبداهةً، فإننا سوف نهتم أكثر ما نهتم بالمرحلة الأولى مع الإشارة، قدر الحاجة، إلى المرحلتين الأخريين، ذلك لأن تلك المرحلة تمثل أول استجابة للعقل من سُباته لداعي العلم والبحث وراء قوانين الطبيعة، هذا البحث الذي يمثل حجر الزاوية في البحث عن أي منهج علمي تجريبي.

لقد كانت المرحلة الأولى " طبيعية " و" توكيدية " في آن ؛ فهي طبيعية لأنها قد سلمتْ بأفضلية الاتجاه، مباشرةً، نحو الطبيعة علها تفض أسرارها غير مفرِّقة في بحثها ذلك بين ما هو روحاني وبين ما هو مادي. وهي توكيدية لأنها كانت مرحلة تفترض افتراضاً قبْلياً بأن المعرفة الإنسانية، ما دامت تتجه اتجاهاً مباشراً نحو الموضوع، صحيحةٌ. وواضح، هنا، أن تلك المرحلة لم تبحث في ماهية المعرفة ولا في المقاييس التي تقاس بها صحة تلك المعرفة أو بطلانها. ومن ثم فلقد كان هناك إرهاصٌ للمرحلة السقراطية، وتمثل هذا الإرهاص في جماعة السوفسطائيين الذين عبّروا عن قلق الروح اليونانية إزاء هذه الثقة المطلقة، وذهبوا إلى أن الثقة المطلقة في المعرفة الإنسانية يجب ألا تكون، لأن المعرفة متغيرة، فالحس متغير وتبعاً لهذا لا نستطيع أن نثق، مطلقاً، بالمعرفة الإنسانية كما هي، بل لا بد من إقامة القواعد والبحث في المفاهيم والأشياء الذهنية. وتلبيةً لهذه النزعة جاء سقراط لتبدأ المرحلة " المعرفية " وليعلن سقراط أن الشيء الموصل إلى الحقيقة هو البحث في المعرفة، فالبحث في المعرفة هو نقطة الابتداء، وهو أهم ما يمثل المرحلة الثانية من مراحل العلم اليوناني، ذلك إلى أن جاء أفلاطون من بعدُ، وقال إن الوجود الحقيقي هو ذلك الوجود العقلي / الذهني الذي يقوم على الديالكتيك، ثم يمتد بفكرة

الديالكتيك إلى بقية العلوم فينشيء الطبيعة والأخلاق، ثم يرث هذا الإرث الفلسفي، كله، أرسطو، فيجعل المعرفة الحقيقية هي معرفة الصور، ويقول إن الصورة كمال الأشياء. ويقيم على مذهبه هذا بناءً فلسفياً شاملاً في العلم اليوناني.

ثم يتوقف هذا الاتجاه ويأتي اتجاه جديد، هو مغالاة في النتيجة التي انتهي إليها أرسطو وأفلاطون لان هذين الفيلسوفين قد قالا بأن الوجود الحقيقي هو الوجود الذهني، ومن هنا صار الوجود الحقيقي هو الوجود الذاتي، وهذا معناه أن الكمال في الذات وأن الموضوع ليس شيئاً مكملاً لهذه الذات، فالنتيجة إذن هي أن يعكف الإنسان على الذات ويصرف النظر، نهائياً، عن الموضوعات الخارجية، ومن هنا كان الدور الثالث أو المرحلة الثالثة من مراحل العلم اليوناني.

ويمكن تلخيص ذلك كله فنقول إن الذات كانت، هي والموضوع، في المرحلة الأولي مختلطين لا فرقَ بين الواحد والآخر، وفى المرحلة الثانية تحللت الذات من الموضوع بعض الشيء وانتهت إلي أن الوجود الحقيقي هو وجود أعلى من الذات ومن الموضوع معاً، وفي المرحلة الثالثة فرق أكثر وأكثر بين الذات والموضوع حتى صارت الذات مستقلةً استقلالاً تاماً ومكتفيةً بنفسها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخري، اضطرت هذه الفلسفة إلي وضع " افتراض" وجود عال، هو الوجود الحقيقي، فهناك الذات منحصرة في نفسها وهناك المبدأ العالي البعيد كل البعد عن الذات، فنشأ عن هذا تعارض لأن الذات لا تستطيع أن تتصل بهذا المبدأ العالي[1].

إن الفلسفة اليونانية، يمكن القول فيها، إنها كانت ذات " قبل وبعد "، فهناك فلسفة " ما قبل " سقراط، وهناك، كذلك، فلسفة " ما بعد سقراط ".

---

١ دكتور عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص ٦٧ وما بعدها، وأيضاً، بنيامين فارنتين: العلم الإغريقي ج١ المقدمة

إن سقراط يمثل نقطة تحول لا حلقةَ وصل، وسقراط، عند بعض المؤرخين، يمثل " خلاص الإنسانية " من الوقوع في " بئر طاليس " جزاءً له، أي طاليس، علي محاولته " المجدفة " لوضع فلسفة عن الطبيعة !!! ومن هنا قالوا عن سقراط إنه قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض وأصر على أن الإنسانية يجب أن توجه دراستها إلي الإنسان، وحول الانتباه عن العلم الطبيعي إلى علم الأخلاق، وبتأثيره " عدلت " الفلسفة عن محاولتها " المتبجحة " لفهم " السموات " وتحولت إلي مهمة أكثر " تواضعاً " وهي تعليم الإنسان كيف يسلك كانسان[١].

لقد كانت أهم خاصية للفلسفة قبل السقراطية أنها كانت فلسفة تتجه مباشرةً نحو الظواهر الطبيعية، بمعني أنها لم تفرق بين طبيعة داخلية وطبيعة خارجية [٢]، وتبعاً لذلك اتجهت إلي الطبيعة الخارجية وحدها وإلي الظواهر التي تصدر إليها من الخارج فحسب وإذا كان هناك فلاسفة قد حاولوا أن يرتفعوا فوق الظواهر الحسية ليكتشفوا وجوداً أعلي وأرقي من ذلك الوجود الحسي، فان هؤلاء، أيضاً، قد بدأوا من الظواهر الحسية وانتهوا إلي نفس الظواهر، بمعنى أنهم لم يقولوا بوجود مستقل للظواهر الروحية أو لعالم روحي منفصل عن العالم الطبيعي، ففيثاغورث قد وصل إلي فكرة العدد بحسبانه أصل الوجود و " فوق " الظواهر الحسية من تأمله في الانسجام بين النغمات وفي مواضع الأجرام السماوية وحركاتها[٣]، وهذا يدل علي أنه لم يقل مباشرة بعالم روحي، وإنما الظواهر قد أدت به إلي الارتفاع قليلاً فوق الظواهر

١- بنيامين فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٩٤ وما بعدها

٢- بنامين فارنتين: المصدر السابق.نفس الموضع، د. عبد الرحمن بدوى: ربيع الفكر اليوناني ص٧٩

٣- بنيامين فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٥٥، د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص٧٩

الحسية. وكذلك الحال مع بارمنيدس الذي لم يقل بفكرة الموجود إلا من نظرته في الوجود المتغير. وكذلك الحال مع هيراقليطس الذي لم يقل بفكرة القانون، أو اللوجوس، إلا من نظرته في الأشياء علي أنها تظهر ثابتة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخري ، يمكن رصد خاصية ثانية للفلسفة قبل السقراطية وهى أن الدارس يلاحظ أنها كانت تتجه مباشرة إلي الموضوع، بمعني أنها لم تكن تبدأ بالمعرفة الباطنية لتصل إلي المعرفة الخارجية، ولذلك فإذا كان هناك فلاسفة قد فرقوا بين المعرفة الحسية وبين المعرفة العلمية الصحيحة، وحملوا علي الحس والمعرفة الحسية، فإنهم لم يفعلوا ذلك نتيجة لنقدهم المعرفة، أو لتأملهم في الذات، من حيث قدرتها علي إدراك الموضوع الخارجي وإنماهم قد فعلوا ذلك لشكهم في الحس، لأن الحس، فيما يري بارمنيدس، يظهر لنا الأشياء متغيرةً بينما هي ثابتة، والحس، فيما يري هيراقليطس، يظهر لنا الأشياء ثابتة بينما هي دائمة السيلان، والحس، فيما يري أنبادوقليس، يظهر لنا الانفصال والاتصال علي أنهما فساد وكون، أو وجود وعدم، كذلك، ثالثاً، يلاحظ الدارس أن من خصائص الفلسفة قبل السقراطية أنها كانت فلسفة لم تستطع أن تجد تفرقة بين العالم الحسي والعالم الروحي، وإذا كان أنكساجوارس قد قال بهذا، فهو يعتبر آخر ممثلي هذا العصر من الفلاسفة. علي أننا نلاحظ أن في نظرته إلي العقل الكلي المنظم للوجود شيئاً من المادية ؛ فهو يري أن العقل الكلي هذا مكون من مادة لطيفة[١].

١- بنيامين فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٧٣، ٧٤، د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص١٠٤، د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص٨٠

ومن هنا يمكن القول بأن أهم خصائص العلم اليوناني قبل سقراط هي: الاتجاه نحو الطبيعة الخارجية، وعدم البحث في الطبيعة الداخلية، وعدم التفرقة بين الوجود المادي والوجود الروحي.[١]

*** *** *** *** *** *** ***

يكاد المؤرخون أن يجمعوا علي أن طاليس هو رائد الرعيل الأول من الفلاسفة[٢]، أولئك الذين أطلوا علي سر الأسرار من عليائه وكلهم بساطة مقدسة، وكلهم عيون يشع منها بريق الدهشة ليكشفوا للبشرية عن اللغز، ذلك اللغز الذي رأه طاليس الوحدة ورد إليها كل تعدد، وذهب أنكسمندر إلي أنها وحدة لانهائية وهي الواحد ذو الثراء غير المحدود وذو الحياة غير المنتهية، وذهب فيثاغورث إلي أن هذا الخليط الهائل لابد له من منظم، وهو عنده العدد، سبيل الانسجام، وهو عند هيراقليطس العقل، أو اللوجوس، المسيطر علي هذا السيلان الدائم في الكون وفق قوانينه، لكن التغير وهم عند بارمنيدس لأن في الثبات الكمال، وواجب علي الإنسان أن يرتفع ببصره إلي ما هو فوق الظاهر المحسوس، وسرعان ما صار عنصر الوجود الواحد غير وارد، فإن أربعة عناصر تفسر الوجود عند أنبادوقليس وفق عناية إلهية مطلقة، وهي عند أنكساجوارس وفق عقل كلي قائم علي كل شيء في الوجود.

إن أول محاولة مستقلة مدعومة لإنتاج نظرة فلسفية تنهج منهجاً علمياً كانت في إيونيا[٣]، إلي الشرق تماماً من اليونان، في القرن السادس قبل الميلاد، ولقد بدأ هناك في

---

١ - د. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص٤٨، ٤٩

٢- جورج سارتون: تاريخ العلم ج١ ص٣٥٨

٣- يونيا، أو يونيا، Uonia: إقليم يقوم في الجانب الغربي من آسيا الصغرى علي بحر إيجة، وكان يسكنها النازحون من بيلونيسيا، وقد سميت يونيا باسم قبيلة من القبائل الإغريقية القديمة،

ملطية طاليس وتابعاه أنكسمندر وأنكسمينس يسألون عن سر الوجود وعن قوانين الكون، ولقد وصفهم الكتاب القدامى بأنهم طبيعيون لأنهم أول من بحث عن تفسير للكون والطبيعة معقول ومفهوم، وكان سؤالهم: ماذا وكيف، وكان الأقرب إلي العقل اليوناني، قبل ذلك، أن يسأل: من ولماذا. وعجباً أن يكون لإيونيا، تلك المقاطعة اليونانية، ذلك الخلود الأبدي، ففيها ولد الفكر الإنساني، وولدت الفلسفة التي هي نتاج العقل الإنساني وأم العلوم كلها، بل في إيونيا ولد الإنسان الحقيقي، ذلك لأن الفلسفة هي الإنسان، ولم يكن في إيونيا معابد غامضة ولا طقوس سحرية ولا ترتيلات وتمتمات خافتة، بل كان هناك العقل الإنساني صافياً وخالصاً، يتساءل: من أي مادة وجِدنا !.

وطاليس يعد أول الفلاسفة اليونانيين، ذلك لأنه، فيما يري نيتشه، قد قال بحقائق ثلاث:

فهو، أولاً: قد تحدث عن أصل الأشياء، أو عن الأصل الذي صدرت عنه الأشياء.

وهو، ثانياً: قد أفرغ كلامه من الاعتماد على " الغيب " حال تناول أموراً من عالم " الشهادة " ما يعني أن الرجل قد جعل كلامه هذا عن أصل الأشياء خالياً من

وكان في هذا الإقليم اثنتا عشرة مدينة، وكانت كل مدينة تحكم نفسها حكماً مستقلاً ديمقراطياً، ولكنها مرتبطة بعضها ببعض بالمصالح المشتركة والشعائر الدينية. ومن أشهر هذه المدن إفسوس Ephesuse التي يقال إنها مدينة أهل الكهف، وساموس ، وميليتوس Miletus، وقد عربها العرب إلي ملطية، وكان منها الفلاسفة المشهورون: طاليس وأنكسمندر وأنكسمينس، وينسب هذا الاتجاه من الفلسفة إلي هذا الإقليم فيقولون الفلسفة اليونية والفلاسفة اليونيون.

الأساطير، فكان بذلك أول من حاول تفسير الفيزيقي دون أن يستخدم مفردات الميتافيزيقي.

وهو، ثالثاً:، قد قال إن كل شيء واحد.

هذه النقاط الثلاثة التي قال بها طاليس، وإن بدت الثالثة غامضة، من حيث احتمالية تأويلها بغير وجه فلسفياً كان أو حتى صوفياً، جعلته أول من تكلم هكذا في الكونيات، ما أهله لأن يكون " رجل علم " حيث أقام بحثه لا على أساس أسطوري، بل العلم وحده[١].

وإلى طاليس ينسب الكثير من الأعمال الهندسية المهمة:

فهو قد حاول أن يقوم بتعديل مجرى نهر هاليس ليسهل على قورش[٢] أن يعبره.

---

١ – د. علي سامي النشار: هيراقليطس. المقدمة، ص٦: ٩، د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص٩٥: ٩٧، فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٤٠، سارتون: تاريخ العلم ج١ ص٣٦٢، ٣٦٣

٢ – هو قورش الثاني، وقبله، في القرن السابع قبل الميلاد، قورش الأول، وبعده، في القرن الخامس قبل الميلاد، قورش الصغير. حكم قورش الثاني فارس الفترة ما بين عامي ٥٥٠ قبل الميلاد و ٥٢٩ قبل الميلاد.

يعد واحداً من كبار الحكام في التاريخ ؛ فقد أسس واحدة من أكبر الإمبراطوريات في العالم القديم سابقاً، بذلك، الإسكندر الأكبر بقرنين من الزمان.

استولى قورش الثاني على بابل العراقية العام ٥٣٩ قبل الميلاد، وقت أن كان اليهود في " السبي البابلي، فأطلق سراحهم.

ينسب إليه بعض علماء الأنثروبولوجيا أنه أول من أصدر " مرسوماً " يمثل أول منظومة مكتوبة لـ " حقوق الإنسان ".

وهو وقد وضع، كذلك، طريقة لقياس حجم السفن بينما هي على مسافات بعيدة من اليابسة.

وهو، أخيراً، قد وضع طريقة حسابية لقياس حجم الأهرامات في مصر.

وبالإضافة إلى مهارته في كل ذلك، يرى أفلاطون، فقد قام الرجل بتفسير ثلاث ظواهر طبيعية:

ظاهرة المغناطيسية.

ظاهرة فيضان النيل.

ظاهرة كسوف الشمس.

ولقد اهتم طاليس بالبحث في الفلك والظواهر الجوية من تبخر وندى وأمطار، وكان لهذا كله، عند طاليس، أثره القوي في جعله يفترض المادة الأولى، كما المبدأ الأول، الماء. كذلك ينسب إليه قوله " إن كل الأشياء مليئة بالآلهة، أو النفوس ". لكن هذا القول للرجل يجب ألا يفيد أي نزعة دينية ثيولوجية، لأن المادة كانت تتسم عند القدماء بالحياة، ولذلك وصف مذهبه بـ " النزعة الحيوية " Hylozoisme [١].

لكن، والأمر كذلك، كيف يجوز لنا أن نضع طاليس في مجموع الفلاسفة وقد كان له في الفلسفة مبدأن:

الكون يتألف من الماء.

---

١ – د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص٤٦، ٤٧

الأرض قرص يسبح فوق الماء، أو أن الماء يوجد فوق رؤوسنا وحوالينا... " وإلا...:

من أين يأتينا المطر " ؟[١].

بل لماذا نجمع على أن الرجل هو " أبو " الفلسفة ومنشؤها[٢].

ولكن إذا كان هناك نكران لما للفلسفة " المائية " من خطر وقدر، فلن يكون هناك نكران على طاليس أنه أول من حاول أن يفسر الكون لا عن طريق الأساطير، ولا عن طريق الآلهة المتعددة التي اتخذها أسلافه، بل عن طريق علمي، دون أن يفسح المجال لـ " مردوخ " الذي هو " الخالق البابلي " الذي تذهب الأساطير البابلية القديمة إلى أنه قد جعل الماء يابساً عن طريق " أكوام " من الحصير بفعلٍ يكافئ قوله " فلتظهر الأرض اليابسة ".

وسواء فشلت محاولة طاليس أو لم تفشل، فهي المحاولة الفلسفية الأولى على أي حال، ويكفي الرجل قدراً أنه أثار المشكلة لمن خلفه، وأنه وضع الأساس فجاء من بعده ليقيم البناء عليه، ويكفيه قدراً أنه قد طبع الفلسفة قبل السقراطية بطابع " المادية " الذي عرفت به والذي ظل يلازمها إلى عصر سقراط، إنه أول من أدرك أن كل هذه الكائنات المتباينة لا بد وأن تكون قد صدرت عن أصل واحد، وأخذ

---

١ – بنيامين فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٤٣

٢– يجمع العادون على جعل طاليس أحد الحكماء السبعة، وقصة هؤلاء الحكماء لم تثبت تاريخياً، إلا أن المؤرخين، وإن اختلفوا في عدد السبعة، فإنهم لم يختلفوا في عد طاليس واحداً من هؤلاء الحكماء. راجع في ذلك: د. الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص٥٢، ٥٣، ٥٦

يتساءل عن ذلك الأصل، فشق بذلك الطريق، وأخذت الفلسفة تدور حول هذه الإشكالية وتبحث عن الإجابة لسؤاله حول " أصل الأشياء.

ولم يكن أنكسمندر، ثاني فلاسفة اليونان، إيونيا تحديداً، أقل انشغالاً من طاليس بالعلوم الطبيعية والرياضية ؛ فهو أول جغرافي خريطة توضح معالم حدود الأرض والبحار في العالم القديم، وقد قام بتصحيحها، من بعده، هيكتايوس الملطي مواطنه. كما كان من مخترعات أنكسمندر الزاوية والساعة اللتان كان لهما أثر كبير في الملاحة البحرية في عصره. وقد امتد اهتمام أنكسمندر بالجغرافيا إلى الجيولوجيا، وإلى البحث في الحفريات لمعرفة أصل الأحياء، وخاصة الإنسان، وقد ظهر له استحالة بقاء الإنسان على الأرض لو كان، منذ البداية، على نفس صورته الظاهرة له في الوقت الحاضر، فافترض أنه قد تولّد في الرطوبة على شكل سمكة، وقد رأي بعض المؤرخين، في هذا الرأي، أثراً للعقيدة الطوطمية وسبباً من أسباب تحريم الفيثاغوريين أكل الأسماك، لكن تفسير أنكسمندر لهذه الظاهرة إنما يكشف عن روح علمية تعتمد على التفكير المنطقي الرافض العلل الغيبية والأساطير الدينية القديمة سبباً تعلل به الظواهر الطبيعية[١]، فالأسماك، كشكل، من أشكال قد سبقت الحيوانات التي تعيش على اليابسة، والإنسان، على ذلك، كان سمكة في يوم من الأيام، ولكن ما أن ظهرت اليابسة حتى لائمت بعض الأسماك نفسها للحياة على الأرض.

---

١ – د. الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص ٦١

بهذا التفسير لنشأة الحياة والأحياء على اليابسة، وخاصة الإنسان، كاد أنكسمندر أن يعد أول فلاسفة " التطور " في تاريخ الفلسفة سابقاً بذلك لابلاس وداروون بمئات القرون الزمنية[١].

والرعد إنما يحدث نتيجة لانطلاق الهواء بين السحب، بعد أن كان التفسير الشائع لهذه الظاهرة يعتمد على الخيال، وينسبها إلى الإله زيوس، وهو " يهز صولجانه ".

والأجرام السماوية التي نراها تدور فوق رؤوسنا، ما هي إلا فتحات داخل أنابيب الضباب المحيط بالأرض والبحر، وما الكسوف سوى غلق كامل، أو جزئي لإحدى هذه الفتحات[٢].

ولقد استمر هذا الاتجاه العلمي، بدون مساعدة مردوخ، والذي تجلى في الفلسفة الملطية، سائداً على مدى ثلاثة قرون مثّلت العصر الذهبي للعلم اليوناني، وقد تجلت هذه الروح العلمية عند كثير من العلماء والفلاسفة الذين تلوا طاليس وأنكسمندر، فأكدوا كيف أن هذه الروح العلمية التي ازدهرت في إيونيا في القرن السادس قبل الميلاد إنما كان ثمرة هذه العقلية المتحررة[٣].

---

١ – د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص٥٠، سارتون: تاريخ العلم ج١ ص٣٧٢

٢ – فارنتين: تاريخ العلم الإغريقي ج١ ص٤٤، د. الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص٦٢

٣ – لقد كانت الخرافات حائلاً دون ظهور النظرة العلمية للكون، ولقد نظر إغريقي سوفسطائي، في القرن الرابع قبل الميلاد، إلى الديانة الرسمية في مصر ولمح فائدتها الاجتماعية، فقد وجد أن المشرّع المصري وضع كثيراً من الخرافات لأنه رأى: أولاً: من الأوفق أن تتعود الجماهير إطاعة أي أمر يصدر إليها من رؤسائها. وثانياً: حكم بإمكان الاطمئنان إلى كون المتمسكين بالدين يخضعون في الأمور الأخرى للقانون، وليس هذا هو نوع المجتمع الذي يشجع فيه أصحاب النظرة المتعلقة بالكون، والغالب عليها الجانب العقلي العلمي، على الظهور والتقدم.

ولقد بلغ هذا المنهج العلمي ذروته في أبحاث الطب الأبقراطي فيما بعد، وليس هناك أدل على هذا المنهج العلمي من ذلك القول المنسوب إلى أبقراط[١] عند تفسيره لمرض الصرع، حيث جاء قوله " يبدو أن هذا المرض ليس أكثر ألوهية من غيره، بل لعله علة طبيعية كغيره من سائر الأمراض الأخرى، ويظنه الناس إلهياً لأنهم لا

---

١ - أبقراط، Hippocratic، عالم إغريقي قديم، عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، على وجه التقريب. كان مشهوراً في الطب الذي مارسه في جزيرة كوس حيث ازدهر الطب في دولة الإغريق القديمة بشكل معترف به حتى في الفكر الحديث والمعاصر.

كان أبقراط ذا نزعة علمية تنكر تأثير الغيبيات في العلاج / الشفاء، فأنكر الخرافات والإعجازات في العلاج والمرض، وأعلن أن تناول الطعام الملائم مدخل أساس لصحة جيدة، كما أعلن أن المناخ ذو تأثير على صحة البدن والعقل.=

=لُقّب أبقراط بـ " أبي الطب " تقديراً لمجهوداته في هذا العلم الذي تقدم، حتى على مستوى المنهج، على يديه، وكان من دلائل ذلك أن صار علاج المرضى علماً يعتمد على الطب المدروس لا على الشعبذة والمشعبذين، كذلك كان من دلائل ذلك أن يقسم الأطباء، حتى يومنا هذا، قسم أبقراط يوم تخرجهم وقبل ممارستهم مهنة الطب.

يتضمن قسم "أبقراط" التزام الطبيب بسبعة أمور رئيسة: فالأمر الأول يتضمن " تقدير المُعلم " الذي أسهم في تأهيل الطبيب. ويتضمن الأمر الثاني " العناية بالمريض " واتخاذ قرارات علاجه بحكمة بما يضمن الخير له. ويتضمن الأمر الثالث " التعامل مع الأدوية " وعدم إعطاء المريض أي دواء يكون فيه ضرر له. ويتضمن الأمر الرابع الالتزام، ليس فقط بشرف ممارسة المهنة، بل أيضاً بشرف " الحياة العامة للطبيب "، ويقضي هذا البند بضرورة أن تتميز حياة الطبيب بالنقاء الأخلاقي. ويتضمن الأمر الخامس " اللجوء إلى المتخصصين " في الحالات المَرَضية التي تتطلب ذلك. ويتضمن الأمر السادس " صفاء النية تجاه منزل المريض " وعدم استغلال الزيارات المنزلية لأي أغراض غير حميدة. أما الأمر السابع فيتضمن " حفظ أسرار المريض " وعدم نشرها.

يفهمونه، ولكنهم لو نسبوا كل ما لا يفهمونه إلى الآلهة وظنوه إلهياً فلن تكون هناك نهاية للأشياء ذات المصدر الإلهي في هذا العالم "[١].

أما ثالث فلاسفة المدرسة ألأيونية، فهو أنكسمينس الذي اختار لتفسير الوجود مادة لا يعوزها شمول الكون، كما يعوزها الشكل والحدود، فقال بـ " الهواء "، وقد يظن البعض، لأول وهلة، أن أنكسمينس قد " انحط " بالفلسفة عن المستوى الذي قد كان أنكسمندر قد بلغه بها، ذلك لأنه، أنكسمينس، قد عاد إلى موقف طاليس بفرض أن العنصر الأول الذي نشأ منه الكون كان مادة معينة محددة، ولكن مهما قيل بهذا الشأن فلا شك أن أنكسمينس قد تقدم بالفلسفة العلمية خطوةً إلى الأمام بعد أنكسمندر[٢]، لأن أنكسمينس قد علل تنوع الأشياء بالتخلخل والتكاثف، فلو أننا أخذنا بنظرية سابقيه من أن أنواع المادة على تعددها واختلاف ألوانها قد نشأت في الأصل من نوع واحد لقابلتنا مشكلة جد عسيرة، وهي ذلك الاختلاف الذي نراه في صفات العناصر الموجودة بيننا، وهنا يجيب أنكسمينس بأن نؤسس " الكيف " على " الكم " فنعلل الأول بالثاني، بمعنى أن تكون صفة الشيء نتيجة كمية المادة التي تشغل الحيز، وذلك ما قصد إليه أنكسمينس حين قال بالتخلخل والتكاثف.

لقد كانت الفكرة التي قالها أنكسمينس هي أن كل شيء إنما هو ضباب، إلا أنه يزداد صلابةً وثقلاً كلما تزايد في فراغٍ معين..

والطريف أن قوله هذا إنما عنّ له من " ملاحظة له للعملية الصناعية " لتحويل المواد المنسوجة إلى لباد عن طريق الضغط.

---

١ – فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٩٧، وأيضاً B. Farrington: Greek science. Pelican ١٩٥٣ P٧٩ ; ٨٢

٢ – جورج سارتون: تاريخ العلم ج١ ص٣٧٣

ولقد اعتقد أنكسمينس أن التخلخل يكون مصحوباً بالحرارة، وأن التكاثف يكون مصحوباً بالبرودة، وقد " أثبت " هذا عن طريق "

تجربة ": فليفتح المرء فاه متسعاً ولينفخ على يديه، إن البخار المتخلخل يخرج دافئاً، وليضم المرء شفتيه وليخرج من بينهما تياراً رفيعاً من البخار، إن البخار المتكاثف يحس به المرء على يديه بارداً[١].

إن أنكسمينس يمثل نزعة علمية خالصة، تلك النزعة التي كانت قد بدأت تظهر عند الفلاسفة اليونانيين، لأن التجاءه إلى الأساطير يكاد أن يكون معدوماً، بينما نجد عند أنكسمندر شيئاً من " الأخلاقية " في تفسيراته للطبيعة والكون حين ذهب إلى تعليل نشأة الكون وفنائه (= كونه وفساده) إلى القول بفكرة أخلاقية هي فكرة العدالة وما تقتضيه من عقاب وثواب.

هذا بينما نجد أنكسمينس قد حاول أن يفسر الكون تفسيراً آلياً، بمعنى التفسير العلمي، بقوله بفكرتي التخلخل والتكاثف، ومعنى هذا أن أنكسمينس يمثل تقدماً ملاحظاً للفكر اليوناني القديم نحو التفسير العلمي الخالص للأشياء.

إن الواحد منا ليلاحظ، وهو يتتبع سلسلة هؤلاء المفكرين الأوائل، كيف أن منطقهم وجماع أفكارهم وقدرتهم على التجريد تزداد جميعاً كلما " تصارعوا " مع مشكلاتهم.

لقد حدث تقدم كبير عندما اختزل طاليس الظاهرة المتعددة للأشياء إلى أساس واحد، وكانت خطوة كبيرة أخرى عندما اختار أنكسمندر الأساس الأول فكرة

---

١ - جورج سارتون: تاريخ العلم ج١ ص٩٧

المادة غير المحدودة لا شكلاً مرئياً من الأشياء مثل الماء، إلا أن أنكسمينس لم يقنع بهذا، فعندما حاول أنكسمندر شرح كيفية ظهور الأشياء المختلفة من المادة الواحدة غير المحدودة عمد إلى الاستعارة البحتة فقال إنها عملية " انفصال "، ثم كان أن شعر أنكسمينس بأن الأمر بحاجة إلى شيء آخر فقدم أفكاره

المكملة عن التخلخل والتكاثف مفسراً بها كيف أن التغيرات الكمية يمكن أن تؤدي إلى تغيرات كيفية.

لقد كانت تلك خطوة إلى الأمام جديدة، حيث أعطت هذه الأفكار تفسيراً ممكناً للطريقة التي يمكن أن يوجد بها جوهرٌ أساسٌ واحدٌ في حالات مختلفة.

وهكذا تلاقى فلاسفة ملطية " طاليس وأنكسمندر وأنكسمينس" في الاهتمام بالبحث في طبيعة الكون (= الكوزمولوجيا)، وكذلك اعتنوا بالرياضيات والهندسة والفلك، وكان لهم، فضلاً عن ذلك، اكتشافات ومخترعات أفادت " فنون " عصرهم.

كذلك يجمعهم اتجاه واحد في الفلسفة هو الاتجاه المادي بمعني أنهم قد تصورا، جميعا، أن الحقيقة العلمية والفلسفية للوجود لابد وان تكون مادة، وكانت هذه المادة الأولى هي " الطبيعة " (= Physis)، والتي كانت تفيد عندهم أصل الوجود ومبدأ نشأته وحركته.

إن هؤلاء الفلاسفة، بحسب اللقب الدقيق الذي أُطلق عليهم في العصور القديمة، هم ملاحظون للطبيعة (= PHysiologol)، فهم يلاحظون الظواهر التي

تبدو أمام أعينهم ثم يحاولون إعطاء تفسير طبيعي بحت لهذه الظواهر، غير ملقين بالاً لتدخل أية عوامل غامضة أو خارقة للطبيعة[١].

إنهم، بهذا المعني وبرفضهم للسحر بأية حال من الأحوال، قد خطوْا خطوة حاسمة نحو المنهج العلمي، وأوجدوا بداية منهج إيجابي لتفسير حقائق الطبيعة.

إنها، على الأقل، البداية الواعية المنظمة لهذا المنهج، كما أنه تجدر الإشارة إلي أن الملطيين لم يكونوا مجرد ملاحظين للطبيعة، لقد كانوا ملاحظين للطبيعة اكتسبت أعينهم السرعة، وتوجه انتباهم وتحدد اختيارهم للظواهر التي يلاحظونها بمعرفتهم لعدد معين من أنواع الطرق " الفنية " و" العلمية "، وإن رفضهم لتدخل أية عوامل غامضة أو خارقة للطبيعة لا يفسر الجدة في أساليب تفكيرهم إلا مجرد تفسير سلبي، والشيء الحاسم هو مضمونها الإيجابي، ذلك المضمون الذي اشتق من أنواع " التطبيقات العلمية " والتي كانت سائدة في عصرهم.

لكن، لماذا لا تبقى الأشياء كما هي عليه بدلاً من أن تكون عرضةً للتغير المستمر ؟ ذلك ما لم يحاول فلاسفة ملطية الإجابة عليه، إلا أن مفكراً " انفرادياً ومتعاليا " في مدينة أيونيا نفسها قد أولى هذا الموضوع اهتمامه، وهذا هو هيراقليطس الأفسوسي.

فاذا كانت المدرسة الإيلية، كما سنري، ستقول بالوجود الثابت وبالوحدة، فإن هيراقليطس يعارض هذا المذهب معارضة تامة، فهو يقول بالتغير بدلاً من الثبات،

---

١ - هذه مجرد نقاط محدودة للوقوف علي أصول المنهج العلمي قبل انتقال كل هذا الإرث إلى العرب. ولمزيد من التفصيل انظر: د. أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص ٦٩، فارنتن: العلم الإغريقي ج١ ص ٤٥: ٤٨، د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص٩٧: ١٠٣، د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص٤٥ وما بعدها

وبالكثرة المطلقة بدلاً من الوحدة، ولذلك فهو يختلف كل الاختلاف مع الفلاسفة الذين جاءوا من بعده ؛ فبينما هم يقولون، جميعاً، عن المبدأ الأول إنه لا يتغير من ناحية الكيف، وإن التغير لا يتم بالكيف بل بالكم عن طريق الامتداد والتقلص، أو التخلخل والتكاثف.

بينما يحدث هذا، نجد هيراقليطس، علي العكس من ذلك كله، يقول إن المبدأ الأول يتغير بالكيف باستمرار، وإن التغير هو تغير استحالة، أي تغير الأعراض[1].

بعضها إلي بعض باستمرار، وهذا معناه أن هناك تغيراً بالكيف سواء في المبدأ الأول أو في كل ما يتم في الوجود من تغييرات[2].

وقولة هيراقليطس الأساس هي " كل شيء في تغير مستمر". إلا أن اختياره للنار أساسه الأول، لا يرجع إلى طبيعة النار، أو لكونها أكثر العناصر تغيراً وتحولاً، وإنما يرجع إلى كونها " العامل الفعال" الذي يؤدي إلى التغير في كثير من " العمليات الفنية والعلمية ". كما أن فكرته الأكثر أهمية هي فكرة التوتر التي قال بها لتفسير ما هو ضد نظريته، هو الثبات، الذي قال عنه هيراقليطس " إنه ثبات نسبي".

---

١ – في اللغة: العرض هو الشيء الذي يُوجَد ولا يدوم طويلاً، ومن هنا فقد وُصف السحاب بأنه عارض، فجاء قوله تعالى في سورة الأحقاف: آية رقم ٢٤ " هذا عارض ممطرنا "، وجاء القول بأن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر. راجع في ذلك: محمد بن إدريس الشافعي: مسند الشافعي. دار الكتب العلمية. بيروت ص٦٧، علي بن أبي بكر البيهقي: مجمع الزوائد. دار الريان للتراث. القاهرة ج٢ ص١٨٨، ١٨٩. وهو، في الاصطلاح، ما يلحق بالجوهر كالبياض والسواد بالنسبة لـ " الإنسان ".

٢ – دكتور عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص١٣٨، ١٤٣

لقد كانت هذه الفكرة واحدة من أخصب الأفكار ذات الفائدة الكبيرة التي قال بها، وقدمها، الفلاسفة القدماء، وهي كغيرها من كثير من الأفكار " العلمية " قد نبعث من الاستمرار في الاستخدامات العلمية للطرق الفنية في ذلك العصر.

إن مذهب التوتر المضاد الذي استخدمه هيراقليطس لتفسير الطبيعة قد اشتقة من " ملاحظة " حالة التوتر في القيثارة، ففي كل الأشياء قوة تحركها إلي أعلي نحو النار، وقوة أخري مضادة تحركها إلى أسفل نحو اليابسة، وإن وجود المادة في أي حالة من حالاتها إنما هو نتيجة للتوازن بين القوى المتضادة نتيجة للتوتر، بل إن الأشياء الأكثر ثباتاً في مظهرها إنما هي ميدان للصراع بين قوى متضادة، وما ثباتها إلا نسبيٌّ ؛ فعلى الدوام تتغلب إحدى القوتين على الأخرى، والطبيعة ، على وجه العموم، تأكل بعضها.[١]

في تاريخ العلم، لاحظ الإغريق، الأحدث عهداً، وجود قولين مأثورين لهما تعلق بطبيعة الأشياء، وفي تاريخ الفكر، لاحظ هؤلاء الإغريق وجود تراث مزدوج: التراث الطبيعي البحت، أو ما يسميه البعض بـ " التراث المادي " وهو نفسه الذي يسميه البعض الآخر بـ " التراث الإلحادي " الإيوني !!!. والتراث الديني الذي صاحب ظهور فيثاغورث في الغرب الإغريقي، ولم يكن فيثاغورث واضع التراث الديني، بل كان أحد العلماء الكبار في تاريخ الإغريق، بل في تاريخ العلم بشكل عام.

---

١ - فارنيتن: العلم الإغريقي ج١ ص٤٦، ٤٨، د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص٣٥: ٦٦، د. زكي نجيب محمود: قصة= =الفلسفة ص٣٧، د. علي سامي النشار: هيراقليطس ص١١٨: ١٢٤

لقد كانت المدرسة الفيثاغورية، إلى جانب كونها مدرسة فلسفية، مدرسةً دينية أخلاقية تقوم على نظام الصوفية، فإلى جانب المباديء الفلسفية التي قالت بها هذه المدرسة، قامت مباديء صوفية كما قامت مذاهب ذات تعلق بالزهد والعبادة.

ولأنها، الفيثاغورية، كانت جماعة دينية أخلاقية صوفية، فقد حاول أصحابها الابتعاد عن الحياة المضطربة التي كانت تحياها بلاد اليونان في ذلك العصر، وكان مطلوباً من هذه الجماعة أن يقوم أعضاؤها كل يوم بتأمل ذاتي لاختبار ضمائرهم، وقد كانوا يؤمنون بخلود الروح وتناسخها، كما كانوا يؤمنون بأن الجسد الفاني ما إلا مقبرة، أو سجن، تشغله الروح فترةً من الزمن[١].

والصفة المميزة لنظام فيثاغورث أنه وجد في الرياضيات مفتاحاً للغز الكون، كما أنها أداةٌ لتطهير الرّوح !!!.

ويتناول بلوتارخ هذه الجزئية، باعتباره فيثاغورياً أميناً، بقوله " إن وظيفة الهندسة هي إبعادنا عن الأشياء المحسوسة والفانية إلى الأمور الخالدة، فالتأمل في الأمور الخالدة هو هدف الفلسفة، كما أن التأمل في الأمور الغامضة هو هدف الدين ".

---

١ – د. الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص٧٥: ٧٧، ويروي ابن أبي أصيبعة أن فيثاغورث كان يرمز حكمته ويسترها، فمن ألغازه:

* " لا تعتدِ في الميزان "... ويقصد تجنب الإفراط.

* " لا تحرك بالسكين النار، لأن فيها قد حميت مرة "... ويقصد تجنب الكلام المحرّض على الغضب.=

=* " لا تضع تماثيل ألآلهة على فصوص الخواتم "... ويقصد ألا يجهر المرء بديانته، بل عليه أن يحافظ على أسرارها ؛ لأنها من العلوم الإلهية فلا يظهرها للجُهّال.

إلا أن الفيثاغوريين لم يحتقروا الاستخدام العملي للرياضيات في الأجيال الأولى لهذه المدرسة، على الأقل، فقد كان التخطيط المنظم للمدن، والذي بدأ في بلاد اليونان في هذه الفترة، كان بتأثير الفيثاغوريين.

كذلك نجد لهؤلاء الفيثاغوريين آراءً فلكية قيّمة منها:

نقدهم للفكرة القائلة بدوران الشمس حول الأرض والتي كانت سائدةً يومها، إذ قرروا أن الأرض كوكب من الكواكب التي تدور حول النار المركزية والتي هي الشمس.

ولا شك أن الفيثاغوريين كانوا، بمذهبهم هذا، أولَ من اتجه بالنظر الفلكي هذا الاتجاه العلمي الصحيح، الذي أدركه، فيما بعد، كوبرنيقوس[1] وسار عليه، وبه، نحو الدقة العلمية شوطاً طويلاً[2].

*** *** *** *** *** *** ***

وبالسير قُدماً مع العلم اليوناني في مرحلة ما قبل سقراط نجد أن المدرسة الإيلية تمثل نقطة تحول حاسمة في تاريخ العلم والفلسفة قبل سقراط، وبهذه المدرسة ينقسم

---

١ – هو كوبرنيقوس، أشهر فلكيّ تبنى نظرية " مركزية " الشمس لا الأرض، حيث أعلن أن الأرض هي التي تدور حول الشمس لا العكس. سبقه إلى هذا الطرح اثنان هما فيثاغورث اليوناني وأريستاخورس السكندري، وتبعه اثنان هما جاليلو وكبلر.

٢ – فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٤٩ وما بعدها، د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص١٠٦: ١١٦، د. زكي نجيب محمود:= =قصة الفلسفة اليونانية ص١٩: ٢٥، د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص٦٧: ٨٠، سارتون: تاريخ العلم ج١ ص٤٣٤، ٤٣٥

ما قبل سقراط إلي قسمين، ولو أن بعض المؤرخين يجعل المدرسة الإيلية تقسم الفلسفة منذ نشأتها وحتى عصر أرسطو قسمين.

يذهب البعض، في مجال الاختلاف حول المدرسة الإيلية، إلى أن الفلسفة التصورية، أو فلسفة التصورات، هي من نتائج الفكر الإيلي، بينما نجد أن هناك ما يؤيد ذلك متمثلاً في مهاجمة بارمنيدس العلم القائم علي التجربة والملاحظة واستخدام الحواس، ومن ثم فقد حاول كل من أمبذوقليس وأنكساجوراس تدارك ما مسخه بارمنيدس في محاولة منهما لطبع الفلسفة، مرة أخرى، بالطابع العلمي الذي قد كان لها من قبل. اوضح فأقول: إن المشكلة التي كانت قائمة وقت المدرسة الفيثاغورية كانت تدور حول تحديد الوسيلة السليمة كطريق لفهم الطبيعة: أهي العقل أم الحس؟.

ونحن نسلّم بأن الفيثاغوريين قد لعبوا دوراً مهماً في محاولة من جانبهم لحل هذا الإشكال، في مرحلتهم الأولى على الأقل، فوضع الكمايون الكروتوني Alcamaeon of Croton، معاصر فيثاغورث، الأسس الأولى لعلم وظائف الأعضاء " التجريبي "، وكذلك علم النفس " التجريبي "[1]، وكان ذلك أثناء محاولته عرض الأساس العضوي " للتجربة الحسية "، حيث قام بتشريح حيوانات، ميتة وحية، ووصل في هذا إلى نتائج طيبة... منها: العصب البصري، واعتبار المخ العضو المركزي للإحساس، وقدرة اللسان على تذوق الطعوم لقدرته على إذابة الجسيمات ذات المذاق لدفئه وملاسته.

١ - سارتون: تاريخ العلم ج١ ص٤٣٧، ٤٤١

وواضح من هذا كله أن محاولة الكمايون تمثل جزءاً من وصف عام لفسيولوجية الإحساس، ذلك كله كان وليدَ التجربة، تلك التجربة التي واجهت مقاومة ونقداً من بعض الفلاسفة الذين آمنوا بالبحث عن الحقيقة عن طريق الفكر البحت وحده ودون مساعدة " الحواس "، وقد حمل لواء هذا الهجوم بارمنيدس الفيلسوف الإيلي وصاحب ديوان " طريق الحقيقة " وديوان " طريق الرائي "[١].

وفي قصيدته التي شملها هذان الديوانان يهاجم بارمنيدس التجربة والملاحظة هجوماً شديداً، ويوجه تحذيراً لمن يحاول الوصول إلى الحقيقة عن طريق استخدام العين والأذن واللسان، فنجده يقول: اصرف ذهنك عن طريق البحث، ولا تدع العادة التي تأصلت عن طريق التجربة المتشعبة تجبرك على اتخاذ هذا الطريق، فتستخدم العين " الكفيفة " والأذن " المرددة "، بل اخترْ بعقلك.

هذا كله في الوقت الذي كان فيه التجريبيون في المدرسة الأيونية يقومون بتجاربهم الفلكية من مرصد مقام على جزيرة تنيدس Tenedos كمثال طيب لاستخدام العين، والتي تهكم عليها بارمنيدس فأسماها " العين الكفيفة " والتي حذر من استخدامها أو التعويل عليها وسيلة لكسب المعرفة.

وأغلب الظن أن هجوم بارمنيدس هذا قد كان هجوماً على " منهج " معين في البحث، وهذا المنهج كان متبعاً، ومطبقاً، في كثير من الميادين[٢].

---

١ – سارتون: المصدر السابق ج١ ص٦٣، ٦٤، د. أميرة مطر: الفلسفة عند اليونان ص٨٣: ٨٥، ٨٨، ٨٩

٢ – د. الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية ص١٤٠، ١٤٤، سارتون: تاريخ العلم. دار المعارف. القاهرة ١٩٥٩م ج٢ ص٤٧

إن بارمنيدس، باعتباره مصلحاً للاهوت الفيثاغوري، أراد باستخدامه " العقل " لنفي حقيقة عالم الحس متعدد النواحي، إنما أراد في الحقيقة أن " يعارض " النتائج " الإلحادية " للفلسفة الأيونية التي أبعدت " المقدسات المتوارثة " عن طريق الطبيعة، ولا عجب، فإن لكل موقف ثمناً، ويمكن القول إنه بظهور المذهب الإيلي Eleaticism بدأت مرحلة أخرى من مراحل انفصال الفلسفة عن جذورها في الحياة العملية.

ويمكن بالطبع استثناء أمبذوقليس، في تلك المرحلة، من تلك المحاولة المضادة للتجربة، فهو الذي رد على هجوم بارمنيدس على الحواس حيث أقر استخدام الحواس وما تقدمه لنا من الشواهد والخبرات، لكن هذا كله، برأي أمبذوقليس، قابل للنقد والتمحيص، فنراه يقول: والآن ادرس كل شيء بالطريقة المؤدية إلى توضيحه بكافة حواسه، ولا تعط لما ترى أهمية أكثر مما تعطي للسمع، وبالمثل لا تقدر أذنك المرددة للأصوات أكثر من تقدير ما ينطق به لسانك من بيان فصيح، ولا تحجب ثقتك عن أي جزء من الجسم يمكن أن يوصلك إلى تفهم شيء من الأشياء، وعليك أن تدرس كل شيء بالطريقة المؤدية إلى توضيحه.

وهذا من أمبذوقليس دفاعٌ محمود عن الحواس، ولقد ساهم، بطريقة التجربة، في دفع المعرفة العملية خطوةً إلى الأمام حين أثبت مادية الهواء.

ويكفيه فخراً أنه ليس في أعماله ما يوازي في الأهمية دفاعه عن منهج المشاهدة، وتجربته المشهورة " لإثبات " مادية الهواء.[١]

١ – سارتون: تاريخ العلم ج٢ ص٥١: ٥٣، فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٦٩

وبنفس المنطق يمكن الإقرار بأن أنكساجوراس من أصحاب الاعتراف بالحواس والتجربة والمشاهدة، فأرسطو يقول بأنه قد أعاد إجراء تجربة أمبذوقليس لإثبات مادية الهواء، كما أنه، أنكساجوراس، قد اعتبر الحواس شيئاً لا غنى عنه عند دراسة الطبيعة، مع إقراره، في الوقت نفسه، بأن في الطبيعة عمليات طبيعية على درجة كبيرة من الاستخفاء، يصعب إدراكها بشكل مباشر[١].

*** *** *** *** *** *** ***

شد ما أثّر سقراط في الفكر الإنساني بوجه عام، إلا أن ما يعنينا في بحثنا هذا ليس سقراط رجل الأخلاق والمنطق، لكن الذي يعنينا موقفه من العلم، على اعتبار أن العلم بحثٌ في قوانين الطبيعة والكون بغية السيطرة عليها لصالح الإنسان، وفي هذا سيكون سقراط مسؤولاً عن جمود العقل الإنساني بعده مدة طويلة[٢]، ذلك فيما يرى نيتشه وأرسطوفان، حيث صوّره الأخير في إحدى مسرحياته وهي " السحب " متلاعباً بالأفكار مسرفاً في الجدل[٣].

ومن المشهور أن سقراط قد حُكم عليه بالإعدام بالسم، وكان من ضمن الاتهامات التي وجهت إليه أنه يبحث عمّا يجري تحت الثرى وفوق السماء، وأنه يلبس الباطل ثوب الحق، فتلك التهم كانت تمثل جانباً من النظرة " اللاعلمية " التي سادت الفكر اليوناني منذ عصر السوفسطائيين، حيث بدأت الفلسفة تتجه ببحوثها نحو الإنسان، ومن ثم فقد حاول سقراط معرفة " الإنسان " متبعاً تلك الحكمة القديمة التي كتبت على معبد دلفى " اعرف نفسك بنفسك " والتي اتخذها سقراط

---

١ - فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص٦٣: ٧٧

٢ - سارتون: تاريخ العلم ج٢ ص٨٧

٣ - د. أميرة مطر: الفلسفة عند اليونان ص١٣٥: ١٣٧

شعاراً لفلسفته، فعد كل بحث في غير الإنسان غير ذي قيمة، وقال بأنه لا خير في معرفةٍ تهمل الإنسان لتعنى بالطبيعة تلتمس من وراء ذلك معرفة أصولها وعلل ظواهرها، ولا قيمة لعلوم الرياضيات والطبيعيات والفلك إذا قيست بمعرفة الإنسان.

لم يهتم سقراط بدراسة الطبيعيات، فقام ينفي عن نفسه " تهمة " الاشتغال " بالعلم الطبيعي " فنراه يقول: شد ما يسؤوني أن يتهمني ملاتوس[1] بمثل هذا الاتهام

١- هو أحد ثلاثة يمثلون أهم شخصيات إنسانية فيما قبل الميلاد، والآخران هما أفلاطون وأرسطو.

وُلد في أثينا وعلّم فيها ما لم يرض مشاهيرها فحُكم عليه بالإعدام شرباً للسم.

اجتمع لسقراط ما لا يجتمع إلا " للرجال الممتازين: الإعجاب والعداوة " !!!

اهتم سقراط بالحكمة حيث فهمها على أنها " كمال العلم لكمال العمل " ؛ فعن العلم أخذ سقراط بمنهج السوفسطائيين، لكنه لم يأخذ بشكوكهم، ودرس الطبيعيات والرياضيات ثم تركهما لأنه رأى أن العلم هو " العلم بالنفس " لأجل تقويمها، فكان أن أعلن شعاره " اعرف نفسك ". وعن العمل كان الرجل يقوّم مِزاجه... وكان سقراط= =حاد المزاج، وكان يقوّم جسمه... وكان ذا جسمٍ قوي، وذلك حتى ينصاعا، المزاج والنفس، لأوامر العقل.

لم تكن لسقراط مدرسة بالمعنى الحرْفي للكلمة، بل كان يجتمع بالناس أينما اتفق يجادل بالدليل العقلي ويخطب ويشرح بعض ما كان " مُسَلّماً به " عند قومه عامة والشباب خاصةً... حيث كان يرى فيهم " مستقبل الدولة " فكان يكثر الجلوس إليهم والاستماع منهم والنصح لهم محاولاً إصلاح ما أفسده السوفسطائيون مبَصّراً إياهم، الشباب، بالحق والخير ليهيىء " للبلد مستقبلاً طيباً على أيديهم ".

كان سقراط يرى في نفسه أنه " حكيم " لكن ليس بما قد يُفهم من الكلمة، بل هو حكيم بما " يعلمه من جهله " بينما غيره " جاهلٌ يدّعي العلم "، فراح سقراط يؤدي مهمة التوعية باذلاً الجهد العقلي اللازم لذلك دون مقابل وقد تجاوز الأربعين، وقد بذل لوطنه مثل ذلك أيام الشباب ؛

فكان قد خدم في جيش بلاده ضمن المشاة مشتركاً في حربين العام ٤٢٩قبل الميلاد و العام ٤٢٢قبل الميلاد.

شغل سقراط منصب العضو الدائم في مجلس الشيوخ العام ٤٠٦قبل الميلاد فأبدى فكراً سياسياً واعياً ؛ حيث كان صاحب موقف مستقل بين الديمقراطيين والأرستقراطيين.

أسس سقراط منهجاً جديداً في " الفهم الفلسفي " أسماه " التهكم والتوليد " ؛ أما التهكم فلا ينصرف إلى معنى السخرية، بل كان سقراط يقوم بتصنّع الجهل متظاهراً بالتسليم بأقوال محدثه، ثم يلقي الأسئلة ويعرض الشكوك كمن يطلب العلم والاستفادة بحيث ينتقل من أقوال الخصوم إلى أقوال لازمة عنها ولكنهم لا يُسَلّمون بها فيكون بذلك قد أوقعهم في التناقض ما يعني أنهم " جهلاء "، وبذا أصبح معنى التهكم " السؤال مع تصنّع الجهل " أو هو " تجاهُل العالِم " وقد أراد سقراط من ورائه تخليص عقل خصمه من العلم الزائف وإعداده لقبول العلم الحقيقي. وأما التوليد فأن يساعد خصمه، بالأسئلة والاعتراضات مرتبة ترتيباً منطقياً، على الوصول إلى الحقيقة التي أقر أنه يجهلها، وهذا يعني أن التوليد هو " استخراج الحق من النفس ".

وجّه سقراط اهتمامه الأكبر لـ " الإنسان " فآثر أن يحصر فلسفته في دائرة الأخلاق باعتبار أنها أهم ما يميز الإنسان، ولذا جاء القول " إن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض " بمعنى أنه " حوّل النظر من الفَلك والعناصر إلى النفس ".

عاصر سقراط السوفسطائيين الذين كانوا يرون أن الإنسان " شهوة وهوى، وأن القوانين قد وضعها المشرّعون لقهر الطبيعة، وأن هذه القوانين متغيرة بتغيّر العُرف والظروف، فهي نسبية غير واجبة الاحترام لذاتها، ومن حق الرجل القوي، بالعصبية أو بالمال أو بالبأس أو بالدهاء أو بالجدل، أن يستخف بها ". فكان أن أعلن أن الإنسان " روحٌ وعقل، وهذا العقل له أن يسيطر على الحس ويدبره. والقوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابِقة للطبيعة الحقة وهي صورة من قوانين غير مكتوبة رسمها من أوجد الكون في قلوب البشر، فمن يحترمْ القوانين العادلة يحترمْ العقل والنظام الإلهي،= =ومن يحتلْ ليخالف هذه القوانين ولا يعاقب في هذه الدنيا فإنه مأخوذ بالقصاص العدل لا محالة في الحياة المقبلة ".

رفع سقراط شعار " الفضيلةُ علمٌ والرذيلةُ جهلٌ " وكان يقصد أن الإنسان يريد الخير دائماً ويهرب من الشر بالضرورة، فمن تبيّن ماهيته وعرف خيره بما هو إنسان سعى إليه، الخيرَ، حتماً، أما الشهواني فهو رجلٌ جهلَ نفسه وجهل خيره ولا يعقل أنه يرتكب الشر عمداً.

غضب على سقراط ساسةٌ وخطباء وشعراء حيث أبان للعامة فراغ رؤوسهم من الفكر الجاد المثمر، وأبان بطلان ما يدعونه من حكمة وعلم وخبرة، فكان أن صوّره أرسطوفان في " السُحُب " رجلاً له نفوذ كبير على الشباب تحديداً، وأنه يعيش مع تلاميذه ليعلمهم الكفر بالآلهة وتغليب الباطل على الحق، ثم طالب أرسطوفان بإحراق المدرسة التي ينتمي إليها سقراط ومريدوه، وكذا قتل سقراط نفسه.

قدم عريضة الدعوى ضد سقراط ثلاثة رجال... هم أنيتوس أحد كبار رجال الإعمال، وملاتوس أحد شعراء المدينة غير المشهورين، وليقون أحد خطباء المدينة. وتضمنت الدعوى أن سقراط " ينكر آلهة المدينة، ويفسد الشباب "... حيث لم يكن سقراط يؤمن بتعدد الآلهة، وكان يدعو الشباب إلى عدم التقليد وإلى ضرورة التفكير الحر غير المستند لا إلى نقل ولا إلى تقليد.

أبان كثير من الملابسات أن أسباب الاتهام شخصية وسياسية ؛ فقد كان سقراط، علاوة على كشفه جهل كثير من الشعراء والخطباء، صاحب موقف من الديمقراطية في ثلاثة أمور: المساواة المسرفة واعتمادها العدد والانتخاب بالقرعة.

تألفت المحكمة من جمع من " النوتية والتجار، المتأثرين بالنزعات الشعبية والتيارات الفجائية " !!!، ودافع سقراط عن نفسه مبيناً أنه لا ينكر وجود مدبر للكون، وأنه لا يدعو الشباب للعصيان، بل للطاعة القائمة على الفكر الحر المستقل، ثم قال لأعضاء المحكمة " إنه يفوض الأمر لهم، لكنه يرفض أن يستعطفهم أو يتنزل إلى ما يتنزل إليه غيره من ضروب الاسترحام المألوفة في المحاكم الشعبية كالبكاء والاستبكاء ".

ولم يكن هذا السلوك المحترم ليعجب أعضاء المحكمة، فأدانوا سقراط وحكموا عليه بالإعدام شرباً للسم، فقال لهم: والآن فقد حان وقت الرحيل، أنا إلى الموت وأنتم لتستأنفوا الحياة، أينا مصيره أفضل ؟ العلم عند الله.

سهّل بعض تلاميذ سقراط له الهرب، وأمّنوا له حياة طيبة في مدينة تساليا، وكان الفرار مستطاعاً، وكذا كان العرف يعذر الفارَّ في مثل هذه الحال، لكن سقراط رفض الهرب كما يفعل العبيد، لما

الخطير، أيها الأثينيون: الحق الصراح أنني لا أتصل بتلك الدراسة بسبب من الأسباب[١].

ومن هنا فقد انصرف سقراط عن بحوث الطبيعة، بعد أن خرج منها كما خرج، بعده، ديكارت من دراسة الفلسفة المدرسية بالشك فيها، وزاد سقراط على ذلك أن " حرّم " الاشتغال بتلك العلوم لأن " عالم " الطبيعة من صنع الآلهة، وهي وحدها التي تملك معرفته، وقد حرمت الآلهة على الإنسان هذه الدراسة، والطبيعيون ببحوثهم في الطبيعة والكون يخالفون حكم الآلهة[٢].

نحن نعلم أن المدرسة الأيونية قد قدمت لنا تفسيراً مادياً للكون وتطوره، معتمدة " العلم الإيجابي " مثلاً أعلى، فكان أن جاء سقراط فدعا إلى ترك البحث في قوانين الطبيعة، واستبدل بالعلم الإيجابي، كمثل أعلى للعالِم، نظرية في المُثل وثيقة الصلة بالإيمان بأن النفس " كائن " خالد يُحمل في صورة مؤقتة في " مأوى من طين

يمثله الهرب " من خروج على قوانين البلد، والقوانين سياج الدولة، في ظلها ينشأ الأفراد، فإن كان الأثينيون قد ظلموه فبأي حق يستهين هو بالقوانين ويظلمها ؟ ثم كيف يهرب وهو لم يغادر أثينا قط إلا= =للحرب من أجلها ؟، وحتى لو هرب فهل يكون الأجانب أوسع صدراً من مواطنيه ؟ ".

" جاء أحدهم بالسم مسحوقاً في كأس فتناولها سقراط بثبات ودعا الإله أن يوفقه في هذا الرحيل من العالم الفاني إلى العالم الباقي، شرب السم دفعةً واحدة دون تردد ولا اشمئزاز، وأخذ يتمشى في الغرفة حتى أحس ثقلاً في قدميه فاستلقى على ظهره كوصية صاحب السم، وبدأت البرودة تنتشر في جسمه حتى بلغت القلب فرجف رجفة ثم أطبق أقريطون فم سقراط وعينيه ".

١ – د. زكي نجيب محمود: محاورة الدفاع. القاهرة ١٩٦٦م ص٤٩، سارتون: تاريخ العلم ج٢ ص٧١

٢ – د. أميرة مطر: الفلسفة عند اليونان ص١٥٢، ١٥٣

"، كما نادى الرجل أن تفسّر الطبيعة تفسيراً يقوم على الاستقراء البعيد. هذا على المستوى الطبيعي، وعلى المستوى الإنساني نادى الرجل أن يفسر التاريخ تفسيراً قدرياً !!!.

ومن هنا يمكن القول إن سقراط قد نحّى جانباً النظرة العلمية للطبيعة والإنسان في آن، واستبدل بهذه النظرة العلمية النظرة دينية التي أنماها الفيثاغوريون وبارمنيدس.

نحن لا ننكر على سقراط أنه أضاف للمنطق إضافاتٍ مهمة، برأي أرسطو، حيث يُعزى إليه، سقراط، الفضل في إدخال الاستقراء والتعريف، لكنه أوقف هذا كله على مجالي السياسة والأخلاق، أما العلم فلا[1].

وهكذا وضُح لنا، مما تقدم، كيف أن مفهوم العلم سوف يتجه إلى الإنسان في كل مناحي حياته وبشكل أساس أولاً وقبل أي شيء آخر، ما سيمهد لتحتل الأخلاق المقام الأول بدءاً من سقراط إلى ما بعد أرسطو، أما الفلسفة الطبيعية، وملحقاتها، من فهم منظم للكون والطبيعة بغرض فهم القوانين / السنن / النواميس المسيّرة للكون والطبيعة ليقدر الإنسان على تسخير الكون لخدمته ليحسن حياته على الأرض، كل هذا سيأتي، حال جاء، في مرتية تالية وأقل أهمية، رغم ما يبدو من البعض من اهتمام بذلك، ذلك لأنه لما كان الوجود الحقيقي عند تلك الفلسفة " الجديدة " سيكون وجود " الماهيات "، فإن هذا الجزء المتعلق بالماهيات سيكون له الاهتمام الرئيس في تلك الفلسفة، وسيكون للطبيعيات المركز الثانوي إزاء هذا هذا الجزء الرئيس المتعلق بالماهيات، وهو ما بعد الطبيعة.

---

١ – فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص١٠٥، ١٠٦

نوضح فنقول: إن الطبيعيات ستصبح ثانوية بالنسبة إلى ما بعد الطبيعة، أما الأخلاق فسوف يكون لها المقام الأول، بل الوحيد، كما هو الحال عند سقراط الذي لم يبحث في شيء أكثر من بحثه في التصورات والماهيات والفضائل، وكذلك الحال بالنسبة لأكثر المدارس السقراطية الصغيرة مثل الميجارية والقورينائية.

هذا... وسوف يتضح لنا أن أرسطو، نفسه، الذي جعل للطبيعيات أهمية كبيرة، وتوسّع فيها توسعات كثيرة، أرسطو الذي فعل كل هذا سيذكر، صراحةً، أن الطبيعيات ثانوية بالنسبة إلى ما بعد الطبيعة، لأن ما بعد الطبيعة، برأيه، أرفع العلوم من حيث الموضوع وهو الله، وشرف كل علم، يؤكد أرسطو، بشرف موضوعه.

*** *** *** *** *** *** ***

ولسنا نجاوز الحقيقة إذا أكدنا أن أكثر المذاهب تمثيلاً للروح اليونانية في العلوم والفلسفة هما مذهبا أفلاطون وأرسطو، من حيث كون هذين المذهبين يمثلان ذروة الفلسفة اليونانية، ما يعني أن الباحث بمقدوره أن يجد في كلا المذهبين، أو أحدهما، وبلا مشقة، روح الفلسفة والعلم اليونانيين.

ونحن لا نقيس فكر أفلاطون بمقاييس الفكر المعاصرة، هذا في مجال العلم الطبيعي، ومع ذلك فبالإمكان القول إن أفلاطون لم يصل، في مذهبه الطبيعي، إلى تصورات العصر الحديث ؛ فهو الذي نظر إلى " حيوية " الطبيعة نظرة أكثر جدية من سابقيه، وهو الذي رفض فكرة " آلية / ميكانيكية " الطبيعة، بمعنى أن الطبيعة، والكون، إنما تسير بحسب قوانين آلية / ميكانيكية لا دخل فيها لـ " روح " ولا لـ " غائية ". بل إن أفلاطون اعتقد في سريان الروح، والنفس، في الطبيعة، وذلك كله واضح في

قوله بأن هناك نفْساً كلية هي نفْس العالَم، وإن الكواكب أجسامٌ حية ولها نفوسٌ خاصة بها.

وأرسطو، هو الآخر، لم يكن بعيداً عن تصور أستاذه أفلاطون للطبيعة، ومع التسليم بـ " علمية " أرسطو، ومع التسليم بالنتائج الطيبة التي أوصلته إليها أبحاثه رغم عجز الإمكانات والأجهزة وكثير مما هو متيسّر في دنيا العلم بعصرنا الراهن، رغم هذا كله، فإن أرسطو لم يفرق بين " الروحية " وبين " الآلية / الميكانيكية " حال درس الطبيعة والكون، فنجده لم يفرق بين الوجود الصوري والوجود الطبيعي، وأعلن أن التفرقة موجودة، فقط، في الذهن. وقال نفس قولة أفلاطون بـ " روحية " الكون والكواكب، فقال بأن الهيولى[1] لها نزوع نحو الاتحاد بالصورة، ما

١- أرسطو: هو أرسطو طاليس أهم عقلية بشرية في التاريخ القديم، ولد العام ٣٥٨ قبل الميلاد في مدينة أسطاغيرا لأسرة اشتهرت بالطب علماً وتعليماً، وتوفي العام ٣٢٢قبل الميلاد، وكانت وفاته في مدينة خلقيس عن عمر يناهز الثالثة والستين إثْر مرض معوي.

هو التلميذ الأقرب لأفلاطون، ورغم ذلك فقد عارضه ؛ فعلى حين رأى أفلاطون أن الموجودات الطبيعية ليست إلا ظلالًا للمثل ؛ قرر أرسطو أن الموجودات الحقيقية هي الموجودات المحسوسات، وأما المثل، التي هي الكليات، فليس لها إلا الوجود العقلي فقط.

وأعلن أرسطو أن العقل ينتزع المُثُل (= المفاهيم / التصورات) من الموجودات الحقيقية، وهذه الموجودات تدرَك بالمشاهدة لا بالفكر، وإذا كان وجود الأجسام الطبيعية حقيقياً، فإن أرسطو أخذ في تفسيرها، وقال إنها مركبةٌ من مبدأين اثنين هما: الهيولى والصورة.=

=والهيولى: كلمة معربة عن اليونانية معناها " مادة غير معينة أصلاً "، وبها تشترك الأجسام في كونها أجساماً، وهي الموضوع الذي تقوم به الصفات، وهي، في ذاتها، لا توصف ولا تحد / لا تُعرَّف، ويمكن أن توصف إذا خُلعت عليها الصورة.

يعني أن في الهيولى شيئاً من " الروحية "، لأن هذا النزوع شيء روحي صرف، ومن المدروس عن أرسطو قوله بأن للكواكب نفوساً وعقولاً، ونظرية " عقول الكواكب " من النظريات المأثورة عن أرسطو، على الرغم مما أثير حولها من اختلافات[1].

أما أفلاطون، فهو عند كثير من الباحثين أهم من أكد ارتباط علم الطبيعة بالبحث في الألوهية والنفس، كما أن الاتجاه الغائي في العلم قد سار فيه أفلاطون شوطاً بعيداً استمر بعده عند أرسطو والرواقية.

وعلى الرغم من تأثر أفلاطون بالفيثاغوريين الذين لجأوا إلى الكَم في تفسيرهم للعالَم الطبيعي ووصلوا إلى نتائج مرضية في دراستهم للفلك، إلا أن الأسس التي استند إليها أفلاطون في تفسيره للطبيعة قد حالت بينه وبين تقدم هذا العلم على يديه.

وتكمن خطورة المنهج الأفلاطوني عندما يقرر أن حقيقة هذا العالَم ليست موجودةً في المحسوسات، بل موجودة في عالَم مفارق أسماه أفلاطون " عالَم المُثُل ".

كذلك كان أفلاطون متسقاً مع نفسه عندما قلل من شأن أي علم ما دام مرتبطاً بما هو طبيعي ومحسوس. ونحن لا نغفل تقدير أفلاطون للعلوم الرياضية حتى جعل فهمها شرطاً لدخول الأكاديمية، لكن هذا التقدير يجب أن يفسَّر من

وأما الصورة: فهي المبدأ الذي يعيِّن الهيولى ويعطيها ماهيةً خاصةً، ويجعلها شيئًا واحداً، وهي ما نتعقله في الأجسام من الصفات كاللون، والخفة والثقل، والجمال والقبح، واللمعان والانطفاء.

١ - د. عبد الرحمن بدوي: ربيع الفكر اليوناني ص٤٨: ٥٢، د. عبد الرحمن بدوي: أرسطو ص٢٢٣: ٢٢٥، أحمد أمين: قصة الفلسفة اليونانية ص١٦٧، ١٧٣

خلال اتجاه أفلاطون العام، فهو تقدير يتبع ما يمكن أن ترفعنا به هذه العلوم إلى الاستقلال عن عالم الحس والخبرة[١].

وتبعاً لذلك أهمل أفلاطون " تكميم " العلم الطبيعي أو قياس الظواهر الطبيعية قياساً رياضياً ملخصاً في قوانين دقيقة، كما أنه أهمل الملاحظة والتجربة أو قلل من أهميتها، فحال بذلك دون تقدم علم الطبيعة الذي كان يمكن أن يخطو مع السابقين خطوات طيبة[٢].

يقول أفلاطون، رداً على من أخذ يطري ويمدح علم الفلك من حيث هو " يوجه " أنظارنا إلى أعلى،: أما عن نفسي فإنني لا أعرف علماً يجعل الذهن يتطلع إلى أعلى سوى ذلك العلم الذي يتخذ من الحقيقة غير المرئية موضوعاً له، وما دام ما يدرسه المرء شيئاً محسوساً فإنه، سواء تطلع إلى أعلى، أم خفض عينيه إلى أسفل، فلن تكون هذه معرفةً على الإطلاق[٣].

وواضحٌ من هذا كله أن أفلاطون لم يهتمْ بمعرفة العالَم وتفسير الكون من أجل السيطرة عليه لصالح الإنسان، كما كان يفعل السابقون على سقراط، بل كان اهتمامه منصباً على نحو واحد وبالدرجة الأولى وهو تبين الحقيقة المثالية، والتي يكون في الاقتراب منها السعادة والطهارة. وواضح، كذلك، أن أفلاطون قد سلك نفس

١ – سارتون: تاريخ العلم. دار المعارف. القاهرة ١٩٦١م ج٣ ص٥٨، ٧٢

٢ – د. أميرة مطر: الفلسفة عند اليونان ص١٩٥، ١٩٦

٣ – د. أميرة مطر: المرجع السابق، نفس الموضع

مسلك أستاذه سقراط، بل زاد عليه بأن قال إن الحقيقة لا يمكن أن توجد في هذا العالم بل في عالم المُثُل، حيث تمثل نظرية المُثُل في فلسفته محور الاهتمام[١].

*** *** *** *** *** *** ***

لقد استطاع أرسطو أن يفرض نفسه، دائماً، في اللحظات العليا لإنجازات البشرية، ولقد ظلت البشرية أسيرة لمنهجه لا تستطيع منه فكاكاً حتى قرب نهاية العصور الوسطى، وبات من المسلّم به عدم استطاعة تجاهل ما وصل إليه من حقائق ولا التخلص من منهجه الذي أقام عليه فلسفته.

لقد كان منهج أرسطو، حقيقةً، منهجاً خالداً وخصباً وقادراً على التأثير والإنتاج دوماً، ومن الواضح للعيان أننا، اليوم، لا نؤمن بكثير جداً مما انتهى إليه أرسطو، لكن الواضح، أيضاً، أننا ما زلنا نستلهم الطابع الفكري الأرسطي[٢].

ويمكن أن نتلمس أسباب التخلي عن فلسفة أرسطو فيما انتهت إليه بحوث بني الإنسان في العصر الحديث من اكتشافات، تلك الاكتشافات التي قلبت موازين الطبيعة وقتها، وقلبت العلم الطبيعي رأساً على عقب، وكان في مقدمة هذه الاكتشافات، بطبيعة الحال، نظرية كوبرنق / كوبر نيقوس، والتي أخرجت الأرض من مركزية الكون وأحلت محلها الشمس مركزاً للكون.

---

١ – زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة ص١٠٧، ولمزيد من معرفة موقف أفلاطون من العلم " الإيجابي " يمكن الرجوع إلى: فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص١٠٧ : ١٣٢

٢ – د. عبد الرحمن بدوي: أفلاطون. بيروت ١٩٧٩م التمهيد

لقد كان أرسطو يضع الأرض في مركز الكون، منطلقاً من أن الأرض تتكون من أثقل العناصر، وهو التراب، المتجه إلى المركز، أما النار فتتجه إلى أعلى لأنها أخف العناصر.

إلى جانب ذلك، فقد أخفق أرسطو في أن يحل الكثير من المشكلات التي عرضت للفلاسفة اليونانيين والتي أوجدت لها الحلول، لكنها كانت، في الغالب الأعم، حلولاً غير مرضية، فهذه الثنائية بين الروح والمادة، أو بين الهيولى والصورة، وهي تلك الثنائية التي أكدها أفلاطون إلى أبعد حد ولم يستطعْ أرسطو، على الرغم من نقده لمذهب أستاذه أفلاطون، أن يتخلص منها، فصارت الفلسفة تبدأ من التصورات لتنتهي إلى التصورات، كما أصبح عدم إمكان الرجوع إلى التجربة، وعدم إدراك التعارض القائم بين التجربة والتصور، أهم عيبين واجههما التقدم العلمي وقتها[١].

لقد فرّق أرسطو بين عالمين: عالَم ما فوق فلك القمر وعالم ما تحت فلك القمر، ووصف العالَم الأول بالسمو والخلود، ووصف الأخير بالنقص والفساد[٢]، ثم طبق تلك التفرقة على موجودات العالم الذي هو تحت فلك القمر، فميّز في الموضوعات الطبيعية بين العنصر الثابت الأزلي الخالد المعقول، والعنصر السلبي، فالأول هو الصورة، والثاني هو المتقبل لهذه الصورة وهو المادة.

١ – د. عبد الرحمن بدوي: خريف الفكر اليوناني. بيروت ١٩٧٩م ص١: ٤

٢ – د. عبد الرحمن بدوي: أرسطو. بيروت ١٩٨٠م ط٢ ص٢٢٢

ذلك إلى أن جاء جوردانو برونو[١] فدافع عن نظرية كوبرنيقوس، وفُسرت المادة على أسس رياضية وردّت الكيفيات، كلها، إلى التغيير الكمي، وأعلن جاليلو، أبو العلم الحديث، أن الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية.

وكذلك، وهذا هو الأهم، تخلصت حركة الطبيعة من تصورات " القصد " و " الغاية " وتحولت إلى آلة كبيرة، وكانت فلسفة ديكارت خير تعبير عن هذه الثورة العلمية الحديثة، حين خلص " المادة " من صفات " الكائن الحي " وفرق بين الجوهر العاقل وبين الجوهر المادي تفرقة حاسمة، فجعل للأول الفكر وللأخير الامتداد.[٢]

وإذا كانت الطبيعة، عند أرسطو، تهتم بالمادة اهتمامها بالصورة، إلا أنه كان أكثر ميلاً للكلام في التوحيد بين الطبيعة والعلة الصورية أكثر مما هو بينها والعلة المادية، ما يعني أن الرجل " مسكونٌ " بالكيف على حساب الكم، والعلمُ يتأسس، في المقام الأول، على الكم.[٣]

لكن يبقى لأرسطو الحق أن نسجّل له ابتعاده " المطّرد " عن تأثير أفلاطون، حيث راح يوجه اهتمامه، بشكل عام، عن " العوالم الأخرى " إلى الحقائق الملموسة

---

١ – هو جوردانو برونو، أو برونو دي نولا، رجل دين وفيلسوف إيطالي. عاش ما بين عامي ١٥٤٨م: ١٦٠٠م. أسس نظرية " الكون الفيزيائي " والتي أعلن فيها أن الكون لا نهائي، وأن الأرض مجرد كوكب في هذا الكون وليست مركزاً له، ما جعل الكنيسة الكاثوليكية تحكم عليه بالهرطقة وتحرقه وكتبه.

٢ – د. عثمان أمين: ديكارت. الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٧٦م ط٧ ص١٦٢، ١٦٣

٣– د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص٢٢١، د. زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة ص١٦٦

سواء في الطبيعة أم في التاريخ، وبدأ إيمان لديه ينمو بأن " شكل " العالم و " حقيقته " لن يوجدا منفصلين عن " مادته " بل متضمَّنين فيها[١].

لقد قام اتجاهٌ لدى أرسطو لإعطاء الأولوية للشواهد الحسية، حيث " يرجى منها قدْرٌ أكبر من الدقة "، ما أسس لأن تتجه أبحاثه الطبيعية، بعد، نحو مزيد من الاعتماد على عنصر الملاحظة، هذا في الوقت الذي يقول فيه أفلاطون، على لسان سقراط في حواره مع فيدو: لقد اعتزمتُ أن أهرُب من خلط الحواس وألجأ إلى الحجة، وعن طريق الحجة أحدد حقيقة الواقع.

إلا أن عدم إقامة البحث العلمي على أساس المشاهدة والتجربة ظل عيباً يلازم الفلسفة اليونانية إلى ما بعد أرسطو، لأنه إذا كانت فلسفة التصورات قد وصلت عند أرسطو أعلى درجاتها، فإنه لم يكن من المنتظر، والحال هذه، ممن جاء بعد ذلك العصر أن يقيم فكراً جديداً، لا في الفلسفة العلمية ولا في فلسفة الوجود، بل ولا حتى في نظرية المعرفة، فقد اتجهت كل الدراسات نحو مشكلة لم تكن ذات أهمية بحيث تتصدر الاهتمام على صعيد المنهج كما على صعيد المحتوى، وهي مشكلة الأخلاق بالمعنى الفردي، وهي تلك التي لها تعلق بتحقيق سعادة الفرد أو المجتمع باعتباره مجموعة أفراد.

ويذهب البعض إلى اعتبار فتح الإسكندر الأكبر بلاد الشرق " محنة " شديدة حلّت بروح المعرفة اليونانية ؛ فقد نتج عن امتزاج الثقافة اليونانية بالثقافة الشرقية مزيجٌ عُرف في تاريخ الفكر بـ " الهيلينية "، وحدث، برأي إشبنجلر، ما يُعرف بـ " التشكّل الكاذب ". وبعد أن قاومت الثقافة اليونانية، في باديء الأمر، بل وتغلبت،

١- فارنتين: العلم الإغريقي ج١ ص١٣٩، ١٤٤

استطاعت ثقافة الشرق أن تترك أثرها في الثقافة اليونانية، وقد تمثل هذا فيما تحمله من تهاويل وأمورٍ ذات تعلق بالسحر والخوارق.

ومنذ أن خضعت الفلسفة اليونانية لهذه العناصر " الأجنبية " أخذت في الاضمحلال حتى أوشكت أن تنتهي، وكان من نتاج " العوامل السياسية " أن تحولت النظرة من " الوجود " إلى السلوك، ولم يعد الفكر ينشد من وراء التفكير أن يدرك مظاهر الوجود، ولا أن يتبين ما فيه من قوىً، ولا أن يفسّر ما تخضع له الطبيعة من قوانين / سنن / نظام، وإنما أصبح الهم الأكبر للمفكر، حيث ما عاد كل ما سبق ذكره يعنيه، أن يوجد لنفسه قواعد للسلوك. وينصرف معنى السلوك إلى أضيق المعاني، فيتم حصر في سلوك الفرد إزاء نفسه، ما يعني انكفاء الفرد على ذاته وتمحوره حول خصوصياته على أمل تحقيق طمأنينة نفسية ذاتية خالصة، ما يعني قيام الجانب السلبي في الإنسان حال يدير الكون حول شخصه ليس إلا !!!، فإن ذلك الإنسان لما فقد حريته في العالم الخارجي، فقد راح يحاول البحث عن " نوع " آخر من الحرية الباطنية في ذاته، وإنه لما كان ذلك الإنسان قد فقد استقلاله السياسي، وذلك بعد معركة كرونيا التي وقعت العام ٣٣٨ قبل الميلاد[١]، فقد انصرف عن " السياسة " بشكل كلي، ووضع تفرقة بين السياسي والأخلاقي، ولم تعد السياسة واجباتِ

---

١ - هي معركة وقعت بين ديموشيتس الأثيني وفيليب الثاني المقدوني، حيث اتهمه ديموشيتس بأنه ذو أطماعٍ تهدد الاستقلال اليوناني، كما طالب الأثينيين أن يبذلوا المال لتقوية الجيش والأسطول، وأن يقبلوا التجنيد في القوات المسلحة دفاعاً عن بلادهم بدلاً من المرتزقة. لكن لم تنجح مطالبه هذه بالقدر المأمول. وفي العام ٣٤٦ قبل الميلاد استولت جيوش فيليب الثاني على أواسط اليونان، وفي العام ٣٣٨ قبل الميلاد هزم فيليب الثاني= =ديموشيتس في معركة كَسيْرونيا، لكن الأخير بقي على مقاومته لفيليب وحكمه المقدوني إلى أن وقعت معركة بينهما العام ٣٢٣ قبل الميلاد انتهت بهزيمة ديموشيتس فانتحر بشرب السم مخافة أن يقع في الأَسْر.

المواطن وحقوقَه، بل أصبحت مجموعةً من القواعد التي يصل الإنسان، حال اتّبعها، إلى السعادة الفردية والاطمئنان الشخصي[١].

*** *** *** *** *** *** ***

ما تقدم هو مدخلٌ لا بد منه لمعرفة دور العرب، بما أضافوه، في تاريخ العلم، فلقد طالع العرب الفلسفة اليونانية، وذلك في العصور الوسطى. ويقيناً فإن العرب لم يكتفوا بمجرد " المعرفة " بل راحوا ينقلون التراث اليوناني إلى لغتهم العربية، وذلك عن الترجمات السريانية، حيث كان السريان أكثر نقلة للفلسفة، وكان على رأس هؤلاء المترجمين حنين بن إسحق ومدرسته[٢].

وطبيعي أن يكون بعض هؤلاء المترجمين غيرَ دقيق في ترجماته، فكان لزاماً على الفلاسفة العرب القيام بتصحيح ما يرونه منقوصاً أو مشوهاً من تلك الترجمات، ذلك يتم في الوقت نفسه الذي يقومون فيه بالتأليف والتجديد، فكان أن خرجوا علينا بنتاج ثقافي وعلمي تركا أثراً غير منكور فيما بعد، وخاصة عند الغرب في العصور الوسطى[٣].

---

١ – د. عبد الرحمن بدوي: خريف الفكر اليوناني ص٧٤٤

٢– هو حنين بن إسحق، أبو زيد حنين بن إسحق العبادي، والعباد نصارى الحيرة، كان شديد العناية بترجمة الطب، كما كان عالماً باللغات اليونانية والسريانية والعربية، رحل إلى كثير من البلاد لجمع الكتب القديمة، وكانت أكثر تراجمه لبني موسى بن شاكر. توفي في السادس من صفر العام ٦٢ هـ. ذكر ابن النديم طرفاً من مؤلفاته... منها: كتاب أحكام الإعراب على مذاهب اليونانيين، وهو كتاب يقع في مقالتين، وكتاب المسائل في الطب، وكتاب الأغذية، فضلاً عما ترجمه من كتب كثيرة.

٣– د. عمر فروخ: العرب والفلسفة اليونانية. بيروت ص١٥، د. أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ص١٣

حقيقة الأمر، لقد أخطأ الغرب، ممثلاً في كثيرٍ من مفكريه، حين أساء إلى عقلية العرب فنسب إليهم أنهم كانوا يفكرون تفكيراً سطحياً، لأنهم، العرب، ليس لديهم عقول مفكرة مبدعة !!! والشاهد أن العرب لم يكونوا بهذه الصورة التي أراد بعض مفكري الغرب تسييدها في أذهان مواطنيه، بدليل أن الغرب، نفسه، وفي عصر النهضة الأوروبية الحديثة (= عصر الإحياء)، كان يعتمد في بناء نهضته الجديدة على المؤلفات العربية، كما على المصادر / المراجع العربية وفي مقدمتها جامعة قرطبة[١] التي كانت تزخر بعدد كبير من العلماء الذين انتسبوا إلى هذه المدينة بقصد الدراسة والاطلاع على الكتابات العلمية العربية.

وقريبٌ إلى هذا قولُ البارون كارا دي فو " إن الميراث الذي تركه لنا اليونان لم يحسن الرومان القيام به، أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلموه إلى العصور الوسطى.

ويرى جورج سارتون أنه من الخطأ أن يعتبر العرب مجرد " نَقَلة " علوم ليس إلا، لأنه عملٌ عظيم أن ينقل العرب إلى العالم كنوز المعرفة اليونانية ويحافظوا عليها، ولولا ذلك، يرى سارتون، لتأخر سير المدنية بضعة قرون. ويعتقد سارتون، كذلك، أن العرب كانوا أكبر معلمين في التاريخ، وأنهم زادوا على العلوم التي أخذوها، ولم

---

١ - هي باللغة الإسبانية: Cordob، كانت حاضرة الخلافة الأموية بالأندلس. تقع على سفح جبل سيرامورينا، وبها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأموي العام ٧٩٢م. من مشاهيرها عبد ربه صاحب العقد الفريد، وابن رشد فيلسوف القرون الوسطى الذي يسميه الغرب Averroes، وأبو الوليد أحمد بن زيدون الشاعر، وابن حزم الفقيه الأندلسي المتوفّى العام ٤٥٦ هـ. وابن زُهر الفيلسوف الطبيب المتوفّى العام ٥٩٥ هـ، وابو بكر قزمان شيخ الزجالين المتوفّى العام ٥٥٥ هـ، ومن ضواحيها الزهراء مسقط رأس أبي القاسم الزهراوي الطبيب الجراح.

يكتفوا بذلك، بل أوصلوها درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو ومن حيث الارتقاء.

لقد كان سارتون ينوي، أول الأول، إغفال مجهود العرب في مجال العلم، لكنه بعد دراسته للغة العربية، مدة عامين، دُهِشَ عندما اطلع على آثارها المدونة بهذه اللغة، وكان أن انتهى إلى أن العالم مَدين للعرب بالمحافظة على التراث اليوناني، وبما أضافوه هم إليه من مبتكرات في المجالين العلمي والعملي، وبنقل ذلك التراث اليوناني القديم، مع تلك الإضافات والزيادات، إلى الغرب[١].

لقد كان لدى العرب رغبة عميقة في العلم، كما كان لديهم تطلع قوي إلى المعرفة، قوّى ذلك دراسة الآداب القديمة من يونانية وسريانية وفارسية وهندية، ولقد تبدت تلك الظاهرة وقت نشأة الدولة العباسية وعند كثيرين من أبناء الدولة، لكن ما نراه جديراً بالاهتمام هو التشجيع المباشر الذي لقيته تلك الحركة العلمية من الخلفاء الذين أجمع الناس على تسميتهم بالعظماء وهم:

المنصور ٧٥٤: ٥٧٥م، وهارون الرشيد ٧٨٦: ٨٠٩م، والمأمون ٨١٣: ٨٣٣م، والمعتصم ٨٣٣: ٨٤٣م.ولقد كانت شروط الفتح الإسلامي تسمح ببقاء بذور / أصول ما سبقها من الحضارات عند طوائف كثيرة من الأهالي الذين واصلوا التمتع بعاداتهم وقوانينهم ولغاتهم، على شريطة أن يؤدوا قيمة الجزية المفروضة عليهم باعتبارهم غير داخلين في جماعة المسلمين وهي الجماعة المكلفة بحماية المجتمع بكل طوائفه، وكان طبيعياً أن تقوم العلاقات بين الفاتحين وأهل البلاد سواء أكان ذلك

١- في تفصيل ذلك راجع: أبو الفتوح التوانسي: من أعلام الطب العربي ص٨ وما بعدها، آلدوميلي: تاريخ العلم العربي. ترجمة محمد يوسف موسى ص٣٨٣، ٤٣٩، ٤٥٠، مجلة عالم الفكر. العدد الأول. المجلد الثامن ١٩٧٧م ص٤ وما بعدها

بسبب الجوار أو بسبب اعتناق الأهالي للإسلام، وقد أخذ ذلك المظهر يزداد باطراد، بيد أن تلك العلاقات لم تتوثق إلا في ظل العباسيين الأوائل.

إننا ونحن في طريقنا لمعرفة دور العرب العلمي في تلك الحقبة لا يسعنا إغفال دور " الأقليات " الذمية في مجتمع " الأغلبية " المسلمة، ذلك لأن الباحث المنصف لا بد وأن ينتهي إلى الإقرار بأن مدخل العلم للعرب كان ترجمات كتب اليونان والأمم الأخرى، تلك الترجمات التي نهض بها وشد ساعدها أقوامٌ كان أغلبهم لا ينتمي إلى " معسكر " المسلمين، لكنه في الوقت نفسه كان منتمياً إلى " المجتمع " العربي.

نحن لسنا بصدد إضفاء نوع من " الكمال " على الاتجاه السياسي للدولة الإسلامية في العصر الوسيط، لكننا، في الوقت نفسه، لا نريد غمط هذه الحقبة حقها في الإشادة، حين كان أهل الذمة لهم ما لمواطنيهم المسلمين، وعليهم ما على مواطنيهم المسلمين.

إن دراسة أي جماعة من الذميين يجب أن تتم في إطار النظرة إلى التفاعل القائم بينهم وبين المجتمع الذي تعيش فيه، وبينهم وبين السلطة التي تحكم ذلك المجتمع، ولا يجب أن تقوم مثل الدراسة على مجرد دراسة " المبادئ " النظرية التي يرفعها هذا النظام أو ذاك، ولكن، وكما أوضحنا، من خلال تتبع سيرة تلك الجماعة ومعرفة مكانتها الاجتماعية والمستوى الاقتصادي الذي كانت تلك الجماعة تعيش فيه[١].

وإذا أردنا تطبيق ذلك على عصر الترجمة، والذي نرى أن أبطاله كانوا، في الغالب، من غير المسلمين، لوجدنا أنه من الضروري التفرقة بين سياسة الخلافة "

---

١ - د. علي حسني الخربوطلي: العلاقات السياسية والحضارية. القاهرة ١٩٦٩م مواضع مختلفة

الرسمية " المعلنة، وهذا ما عنيناه حين قلنا " المبادئ النظرية "، وبين الواقع الفعلي، وهذا ما عنيناه حين قلنا " المكانة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي ".

نعم، إن كتب التاريخ بها صفحاتٌ نرى منها الموقف " الرسمي " للخلافة متشدداً وأحياناً معادياً لطوائف أهل الذمة. كما أنه قد صدرت بعض المراسيم بتمييز تلك الطوائف من الناحية الاجتماعية ومنعهم من الوظائف العليا والمهمة في الدولة، كما وأن بعض عمال الخليفة كانوا قساة وذوي أساليب عنيفة، أحياناً، في تحصيل الجزية، كما وأن هناك أوامر قد صدرت بالحد من بناء دور العبادة للذميين، من كنائس وبيع، لكن هذا الأمر يجب أن يقرن به أن الخلفاء كانوا، بعد إصدارهم تلك الأوامر، لا يلاحقون / يتابعون تطبيقها، ما يعني أنها كانت " ذراً للرماد في العيون "، فإذا ما تقادم عليها الزمن بوقت طُويت في سجلات النسيان وأُهملت، عن عمد إهمالاً، ذلك لأن الخلفاء لم يجدوا لذلك الموقف " الرسمي " ما يبرره / يؤيده في تعاليم الإسلام.

ولذلك يمكن اعتبار هذا " الاتجاه الرسمي " للدولة مجرد مناورة تفرضها ظروف وآليات الحكم، وكذا طبيعة المجتمع الذي أغلبيته مسلمة، ويمكن اعتبارها، كذلك، سلاحاً سياسياً بيد الحاكم في أوقات يختارها هو ليكسب بها تأييد " الرأي العام " ممثلاً في بعض الفقهاء وبعض رجال الدين ذوي النفوذ في المجتمع، والتأثير على جماهير المسلمين، والذين لا يرضون أن يتسلط عليهم ذميٌّ بأن يحتل منصباً مهماً في الإدارة أو في البلاط السياسي العباسي[١].

١ - د. فاروق عمر: حنين بن إسحق والسلطة العباسية. مهرجان أفرام وحنين. بغداد ١٩٧٤م ص٤٢٣ وما بعدها

هذا عن " السياسة الرسمية " المعلنة، أما عن الواقع الفعلي الذي عاشه ووصل إليه الذميون في المجتمع العربي الإسلامي فهذا واقعٌ يتناسب عكسياً مع ذلك الموقف الرسمي المعلن للدولة، ذلك لأن تعقّد المجتمع وتطوره واحتياجه إلى مهارات / كفاءات متنوعة، ألزمَ الخلافة العباسية أن تقيّم الفرد لتوليه المناصب الإدارية والمالية، وغير ذلك من المناصب العليا والمهمة في الدولة، دون تمييز بين ذميٍّ أو مسلم.

هذا وقد تقبّل المجتمع المسلم هذا الأمر واعترفَ، بل ورحّب، به، حتى أن بعض الفقهاء، من أصحاب الاتجاه المستنير، وقف يؤيد استخدام من هم على غير ملة الإسلام، ولم يكن موقف هؤلاء الفقهاء المستنيرين مجردَ فتوى جديدة أو بدعة مستحدثة، بل كان اعترافاً بأمر واقع يدل على تأسيس ما عُرف، بعد، بـ " فقه الواقع "، كما أن هذا البعض المستنير، من فقهاء ذلك العهد، أسقط " الجزية " عن بعض أهل الكتاب باعتبارهم " مواطنين " لا " ذميين " !!!. وفي الوقت نفسه كان هذا الأمر لا يتقاطع مع ما يدعو إليه الإسلام[١].

وإذا كان الباحث يكاد أن يجد ندرة في المعلومات التي هي بين أيدينا عن أهل الذمة في المجتمعات المسلمة، فإن ذلك الأمر لم يكن خاصاً بالذميين دون المسلمين، بل شمل الطائفتين معاً ممن كانوا يعدون من الدهماء والحرافيش، لأن المؤرخين، غالباً، يؤرخون للحكام ولعلية القوم، وبذا يصبح ذلك " الإهمال الإعلامي " أمراً شارك فيه الذميون مواطنيهم المسلمين، والدليل على ذلك أن كتب التراجم تكتظ صفحاتها بأخبارٍ كافية عن أهل السلطة، وأصحاب الحل والربط في المجتمع

١- د. فاروق عمر: العباسيون الأوائل. دمشق ١٩٧٣م ج٢ ص١٧١ وما بعدها

الإسلامي الوسيط، سواء من كان منهم مسلماً أو كان ذمياً، وما أخبار يوحنا بن ماسوية[١] وحنين بن إسحق[٢]، ولهما في الترجمة شأن كبير، منا ببعيد[٣].

لقد كان المجتمع العربي في بداية تنظيمه تقوم حضارته على أسس دينية بحتة، ذلك أثناء عصر الخلفاء الراشدين بدءاً بأبي بكر الصديق وانتهاءً بعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، لكن لم يكد العرب يطمئنون على بناء دولتهم الجديدة، وعلى أن هذا البناء قد أصبح من القوة بمكان بحيث لا يُخشى عليه من بأس من كان يخشاهم من قبل، حتى بدأ العرب يفكرون في دعم بناء هذه الدولة بالعلم الدنيوي، بعد أن علموا أنه من المنهيّ عنه في الدين مكث الرجل في صومعته يدعي أنه يتعبد تاركاً اقتحام الكون ومعرفة قوانينه، وإنما المفروض عليه تعلم العلم والانتفاع به في ترقية الحياة وتقدمها.

ومنذ بداية العصر الأموي، أخذ الزحف العلمي العربي يضع الخطوط الأولى، ونعلم أن خالداً بن يزيد بن معاوية كان أول من اشتغل بالترجمة، وقد ترجم كراسة في الطب هي " كناشه أهرن " للطبيب المسيحي السكندري ذي التأثير المعروف في الدراسات الطبية الإسلامية العربية الأولى، ثم أخذ تيار حركة الترجمة والنقل يشق طريقه وبلغ مداه في عصر المأمون، وكان أبو جعفر المنصور من أول الخلفاء العباسيين الذين تنبهوا إلى قوة العلم في بناء دائم الدولة، فشجع الترجمة والنقل وكان لشدة حرصه وعنايته بقيام حركة علمية قوية، كان يعتمد على علماء السريان

١- كان طبيباً مشهوراً من أطباء جنديسابور. هاجر إلى بغداد وأنشأ بها بيمارستانا وجعله المأمون رئيساً لبيت الحكمة، وكان أستاذاً لحنين بن إسحق، وتوفي العام ٢٤٣ هـ / ٨٥٧م

٢- عن حنين بن إسحق، راجع هذه الدراسة ص١٠٠ الهامش رقم ١٣٠

٣-د. فاروق عمر: أحوال اليهود في العصر العباسي. مركز الدراسات الفلسطينية. العدد رقم ٢ لسنة ١٩٧٢م ص٦٧ وما بعدها

الذين اشتهروا في ذلك العصر بأنهم حملة العلم ونقلته، وهم الذين كانوا يقومون بتدريسه في مدارس الشام في الرها[١] ونصيبين[٢] وحران[٣].

وكان السريان هؤلاء على درجة عالية من العلم بالثقافة اليونانية، كما كانوا ملمين باللغة اليونانية القديمة إلماماً تاماً.

ولقد وجه أبو جعفر عنايته إلى ترجمة علوم الطب والفلك، ومن ثم اهتم المترجمون بترجمة كتب العلم في تلك الفروع.

ويعزي بعض المؤرخين إنكار العرب للأدب اليوناني وعزوفهم عنه، في بداية عصر الترجمة، إلى أن العرب كانوا ينظرون إلى أدبهم باعتباره أحسن الآداب آنذاك، ولما كان الأدب ترجمة عن الشعور والإحساس رأوا أنفسهم في غير حاجة إلى استعارة شيء من الأدب اليوناني، كما وأنهم كانوا ينظرون إليه باعتباره أدباً وثنياً يتحدث عن تعدد الآلهة.

١- الرها: هي Edessa باليونانية، وأرهوني بالآرامية، وهي مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، وكانت لها حضارة عظيمة وشهرة في الكنائس والأديرة، وهي عند النصارى مقدسة. فتحها عياض بن غنم العام ١٧ هـ

٢- هي مدينة من مدن الجزيرة. فتحها عياض بن غنم في خلافة عمر بن الخطاب، وتقع على نهر هرياس وهو أحد روافد الخابور

٣- تسمى، في اللاتينية، Garrhae، وتعرف في النقوش المسمارية باسم خرانو بمعنى الطريق، وتقع شمال غرب العراق وأهلها الحرانيون، وهم الصابئة المذكورون في القرآن الكريم، وهؤلاء طائفة تعميدية يهودية مسيحية، ومنها أسرة بني قرة التي أدت خدمات جليلة في العلوم الرياضية والفلكية عند العرب. ومن= =أعلامها ابن تيمية إمام الفقه الإسلامي في عصره، المتوفى العام ٨٢٧ هـ

ونحن نسلّم أن العرب خلال العصور الوسطى، خاصةً النصف الأول منها، كانت لهم جهودٌ علميةٌ من الطراز الأول، لا سيما في مجالات الطب والفلك والرياضيات، ولم يقتصر المسلمون على نقل العلم اليوناني، بل أضافوا إليه النواحي العملية بصفة خاصة، وقد تلقوا هذا العلم هذا العلم عن طريق السريان، خاصة النسطوريين المسيحيين[١] الذين كانت عاصمتهم الفكرية جنديسابور[٢].

في تلك العصور قام اتصال واسع بين العرب الفاتحين وبين أهل تلك البلاد المفتوحة. كما أن العرب قد تفاعلوا مع حضارات تلك الشعوب بعد اتصالهم بقوميات وأديان متعددة كانت لها اليد العليا، حضارياً واجتماعياً، قبل الفتح الإسلامي لها.

هذا، واستجابةً لحاجة العرب إلى تحديث مجتمعهم، كان لا بد لهم من معرفة فنون وعلوم ونظام شعوب البلاد المفتوحة.

وكان طبيعياً أن يقوم بهذه المهمة أبناء البلد المفتوح نفسه، حيث إن العرب لم يكونوا يستطيعون أن يقوموا بذلك، فكان أن قام به غير العرب، وغير المسلمين، من أبناء هذه البلاد التي فتحها العرب في بداية إقامة دولتهم، فقام أهل البلاد الأصليين بنقل تراث الفكر الإنساني وترجمته عن الإغريقية.

١- هم جماعة من السريان ظهروا العام ٤٣١ م عقب انقسام الكنيسة الكاثوليكية. ومذهبهم الديني يخالف الكنيسة العامة والكنيسة اليعقوبية. كانوا ينتشرون في الشام وفارس، واعتُمد عليهم في تدريس الطب والفلسفة بفارس.

٢- جنديسابور: مدينة بخوزستان، بناها سابور بن أردشير الساساني، وأسس بها كسرى أنو شروان معهداً للدراسات الفلسفية والطبية. كان أكثر أساتذته من النساطرة، وتخرّج منه آل بختيشوع. فتحها عقبة بن غزوان في خلافة عمر بن الخطاب.

وبهذا الشأن جاء قول ماكس مايرهوف " لقد كانت علوم الإغريق، في الزمن الذي نفذ فيه العرب إلى قلب الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، قد أصيبت بوهنٍ شديد، ولم تعد تملك تلك القوة الفاعلة، فانتقلت إلى أيدي العلماء الذين نسخوا وشرحوا أبحاث أرسطو وعلقوا عليها، كما فعلوا الشيء نفسه مع أبحاث أبقراط وجالينوس وبطليموس وأرشميدس "[١].

كما أن المستشرق السوفيتي بارتولد يؤكد على أنه قد كان " النصارى أحسن حالاً تحت حكم المسلمين في الأزمان الأولى لحاجة الفاتحين إلى هذا العنصر المسيحي المتفوق على العرب حضارياً "[٢].

لكن هذا الأمر لا يجب أن يدل على " تأخر " العرب والمسلمين، ولا على أن أمر الحراك العلمي، ممثّلاً، وقتها، في حركة الترجمة، قد تُرك لأهل الذمة واكتفى " الفاتحون " بمجرد إعطاء الحرية وكفل السلام والتسامح لمواطنيهم المسيحيين واليهود وأهل الديانات الأخرى ؛ فإن أوليري يشير إلى حركة الترجمة بقوله " كانت أولى الدلالات، وأهمها، على التكيّف الجديد في الفكر الإسلامي في الإنتاج الغزير

١- توما آرنولد: تراث الإسلام. ترجمة جرجس فتح الله. بيروت ١٩٧٢م ط٢ ص٤٤٨، ٤٤٩

٢- باسيلي فلاديمير بارتولد: الحضارة الإسلامية. ترجمة حمزة طاهر. القاهرة ١٩٦٦م ط٤ ص٥٣، ر. بلاشير: تاريخ الأدب العربي=.= مجلد ٢ ترجمة إبراهيم الكيلاني. دمشق ١٩٧٣م ص٦٠ وما بعدها، ديلاس أوليري: الفكر العربي ومكانه في التاريخ. ترجمة تمام حسّان. القاهرة ١٩٦١م ص١٢٠. وتبقى عبارة بارتولد بحاجة لتقييم: لم يقم العرب، والمسلمون، حسن علاقاتهم بمسيحيي الدول المفتوحة على أساس " الحاجة "، وإن لم ننكر هذه الحاجة، لكن " حُسن " العلاقة تلك قد تأسس، في المقام الأول، على مفهوم " عقدي " يجعل على المسلم يفعل هذا انطلاقاً من " الدين " قبل " الحاجة " التي لو تقدمت لمثّلت بعداً نفعياً لا نظن الفاتحين وضعوه في الاعتبار كمقدم على نصوص الشريعة: قرآناً وسنة.

للترجمات العربية من مؤلفات تتناول الفلسفة العلمية، وكان نتيجة ذلك أن استحوذ العالم الذي يتكلم العربية، بعد سقوط الأمويين بثمانين عاماً، على ترجمات لمعظم مؤلفات أرسطو وشرّاح الأفلاطونية المحدثة وبعض أعمال أفلاطون وبعض أعمال جالينوس وأجزاء من مؤلفات أخرى في الطب وشروحها، ثم من مؤلفات إغريقية ومؤلفات هندية وفارسية مختلفة "[١].

لقد تأسس نشاط الترجمة في ذلك العهد على مرحلتين:

المرحلة الأولى: تبدأ من قيام الدولة / الخلافة العباسية العام ١٣٢هـ، حيث قام مترجمون " مستقلون " بقدر كبير من الترجمة، وكان أكثر هؤلاء من المسيحيين واليهود الذين دخلوا الإسلام من الديانات الأخرى.

المرحلة الثانية: تبدأ بتولي المأمون، وخلفائه المباشرين، الخلافة، حيث تركزت أعمال الترجمة في مدرسة أسست في بغداد، وقام مجهود كبير لجعل المادة الضرورية للبحث الفلسفي، والعلمي، في متناول الباحث الذي يتكلم العربية[٢].

ثم حدث تطور حاسم في حركة الترجمة، فقد بقيت، حتى بعد عهد راعيها المأمون، نشيطةً متجهةً نحو الأوفق والأحسن، لكن الترجمات ما عادت " مقابل أجر " بل أصبحت مدعاةً للمتعة العقلية وهوايةً ودليلاً على علو المنزلة ورفعة الشأن.

وبحلول عصر النهضة العربية (= القرن الرابع الهجري) ما عادت المكتبات تشهد مجرد ترجماتٍ للأصول اليونانية، إنما صارت تلك الترجمات تلحق بحواشي

١- أوليري: الفكر العربي ص١٢٠

٢- أوليري: الفكر العربي ص١٢٠

وتعليقات وشروح، وإن كانت بدأت تظهر في صورة دراسات قصيرة وفي موضوعات محددة، لكنها تطورت فأصبحت بشكل مؤلفات جامعة اشتملت، إلى جانب النقل والترجمة، على الاقتباس والاجتهاد والتحليل والنقد، وخرجت في شكل على قدر كبير التبويب والتنظيم والعرض[١].

ونعتقد أن تلك " الطفرة " في حركة الترجمة قد أظهرت، على السطح، العنصر العربي والإسلامي ؛ فإنه على الرغم من الإقرار بتفوق غير المسلمين على المسلمين في مجال الترجمة، خاصة في بدء حركة الترجمة، من حيث إن غير المسلمين كان لهم السبق في الاطلاع على علوم الإغريق واليونان وثقافتهم، إلا أن هؤلاء لم يتفوقوا على علماء المسلمين، كما يدعي بارتولد ؛ فلم يخرج منهم عالم يضارع الفلاسفة: الكندي[٢] أو الفارابي[٣] أو ابن رشد[٤].

---

١ – د. كمال اليازجي: معالم الفكر العربي. بيروت ١٩٥٤م ط١ ص٤٦

٢ – هو أبو يوسف، يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن قيس الكندي، من قبيلة كندة الأرسخ قَدماً في الحضارة من غيرها من قبائل العرب. ولد في الكوفة، ودرس في البصرة، وتميز في الفلسفة والطب والموسيقى والهندسة والفلك، وعمل طبيباً ورئيساً لديوان الخراج بزمن المأمون والمعتصم والمتوكل. ترجم كتباً إلى العربية من اليونانية، كما هذّب ترجمات قام بها غيره. توفي العام ٨٦٧هـ.

٣ – هو أبو نصر، محمد بن محمود بن طرخان الفارابي نسبةً إلى فاراب من بلاد ما وراء نهر سيحون. فارسي الأصل. يعد أحد عظماء فلاسفة الإسلام قبل ابن سينا، وهو المعلم الثاني بعد أرسطو، الذي هو المعلم الأول. والفارابي محسوب ضمن " أحسن " شراح أرسطو.

٤ – هو الوليد، محمد بن أحمد بن محمد بن رشد. ولد في قرطبة العام ٥٢٠هـ، وتوفّي في مراكش العام ١١٩٨هـ. رأى فيه بيكون أنه " فيلسوف متين متعمق صحّح كثيراً من أغاليط الفكر الإنساني ". كان طبيباً لأبي يعقوب يوسف المنصور.

كما أن تفوق المسلمين على غيرهم، مع وجود أواصر المواطنة، أفقد الذميين علاقتهم بالإغريقية حيث ساعدتهم لغتهم السريانية، ذلك لأن اللغة العربية أصبحت لغة العلم بعد نقل ذلك التراث الضخم من العلوم والمعارف الأجنبية إلى العربية، فأصبحت اللغة العربية لغة لا علم فقط، بل لغة ثقافة بعد أن تأكدت كلغة فنون وآداب[١].

ونعتقد أنه من الأهمية بمكان النظر إلى المراكز الحضارية التي قد كان لها دورٌ كبير في نقل العلوم إلى العربية، ذلك قبل دراسة الأعلام الذين كان لهم دورٌ فعال في نقل تلك العلوم إلى العربية.

ومن اليسير رصد مدن، في الدولة الإسلامية، مثّلت الأماكن ذات التأثير الخطير في الفكر في بدء عصر النهضة العربية:

بصرى:

مدينة بصرى، تقع " في الجنوب الشرقي من دمشق في بسيط من الأرض، كانت لها مكانة كبيرة زمنَ اليونان والرومان. فتحها الإسكندر المقدوني وصارت تضارع تدمر في عمرانها، ولا تزال قصورها ومعابدها وهياكلها موجودة حتى يومنا هذا "[٢].

١- بارتولد: الحضارة الإسلامية ص٥٦، أبو الفتوح التوانسي: من أعلام الطب العربي ص١٢، ١٣

٢- Rene Dussaud: Lesarappbes En Syrie Avant L,Islam، العرب في سوريا قبل الإسلام. ترجمة عبد الحميد الدواخلي. القاهرة ١٩٥٩م ص٧

كما إن نفس المرجع يشير إلى أهمية هذه المدينة وحيوية موقعها ومدى تحضرها بالقول " منذ تأسيس المقاطعة الرومانية في جزيرة العرب والذي يرجع إلى عام ١٠٦م عبّدت الإدارة الرومانية شبكة من الطرق تتجه جنوباً، وكان مركزها بصرى التي كانت، قديماً، سوقاً تجارية نبطية، فصارت عاصمة المقاطعة الجديدة، وعلى هذا فقد أصبح طريق القوافل الممتد من بصرى المتجهة نحو الجنوب ماراً بعمان من فيلادلفى وبطرا، يصل إلى خليج إيلات، العقبة، ومن بصرى كان هناك طريق روماني يصل إلى أذرعات، وطريق ثانٍ يصل إلى دمشق، وثالث يصل إلى صلخد، ثم قلعة الأزرق حيث أقيم آخر حصن عند مدخل الصحراء "[١].

واتخذت مدينة بصرى عاصمةً حضارية / سياسية للغساسنة، ذلك مقابل الحيرة التي كانت عاصمة حضارية / سياسية للمناذرة. ولمجاورة الغساسنة للبيزنطيين ترك الغساسنة آلهتهم واتخذوا المسيحية ديناً، كما اتخذوا الآرامية لغةً لهم إلى جانب اللغة العربية[٢].

وعلى المستوى الحضاري، كانت بصرى، شأنها شأن كل مدن الغساسنة التي أصابت نصيباً من التمدن، تجتذب الشعراء الجاهليين، والذين عن طريقهم، والتجار والمبشرين، تسربت إلى اللغة العربية مجموعة كلمات آرامية مثل " كنيسة، بيعة، ناطور، فدان، قصر "[٣].

١- الدواخلي: المرجع السابق ص٨، ٩، الحسن الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء. بيروت ١٩٦١م ص٩٨: ١٠٤

٢- يُطلق على الآرامية، في العهود المسيحية، السريانية

٣- مأخوذة عن كلمة قسطر السريانية عن كلمة كاسترم اللاتينية. راجع فيليب حتى: تاريخ العرب. بيروت ١٩٦٥م ط٤ ج١ ص١٥١

ولما كان لهذه المدينة تاريخ طويل في الاحتكاك بحضارات بيزنطة، فقد ورث أهلها، على العهد الإسلامي، خبرات ومعارف أجدادهم، وكان لمهارتهم وإجادتهم للآرامية والإغريقية والعربية الفضل في أنهم كانوا من الرعيل الأول الذي اعتمد عليه واستعين به في حركة الترجمة والنقل، كما يرجع إليهم الفضل في امتزاج العمارة الإسلامية بالفن المعماري البيزنطي، في الوقت الذي كانت السلطة الحاكمة لا تجد حرجاً في منحهم حرية دينية واسعة أشعرتهم بأن الحضارة الإسلامية حضارة عالمية تتبنى " إنسانية " العلم، ما أشعرهم بالمسؤولية أن يكونوا لبنات طيبة في بناء الحضارة[١].

الحيرة:

الحيرة، مدينة تقع على بعد ثلاثة أميال من الكوفة شمالاً، وهي على نهر صغير يصب في نهر دجلة، وتعد الحيرة واحدةً من أكبر مدن العصور السابقة. كانت مركزاً حضارياً في عهد المناذرة وقت أن كانت عاصمةً لهم. سكنها العرب والنبط والإيرانيون، وبعد اعتناق سكانها المسيحية بنوا فيها قصوراً متميزة كقصر الخورنق والسدير والأبيض والزوراء، كما بنوا فيها كنائسَ كبيرة، كذلك أقاموا، للدفاع عنها، حصوناً منيعة. بها أديرة شهيرة كدير هند الكبرى. فتحها خالد بن الوليد العام ١٢هـ، لكن المدينة فقدت أهميتها بعد بناء مدينة الكوفة[٢].

عن طريق هذه المدينة وصلت إلى العرب حضارات وثقافات الآراميين النساطرة، ثم أصبح هؤلاء حلقة وصل بين الثقافتين الهيلينية والإسلامية، حيث

١- بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص٥٤

٢- أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي: الديارات. تحقيق كوركيس عواد. بغداد ١٩٥١م مواضع مختلفة

نقرأ " كانت العناصر المولدة للتثاقف، في بداية الأمر، سكانَ المدن في بلاد الشام والعراق ومصر، وكذا كتل الحضريين الريفيين الذين يدورون في فلكهم، وتظهر هذه العناصر بتقاليدها الكتابية ومزاولتها أعمال الإدارة بمظهر المتمدينين، فظلت التقاليد الرومانية والهيلينية والتراث الفارسي، من خلالهم، على قيد الحياة "[١].

جند يسابور[٢]:

فيها أنشأ كسرى أنو شروان مدرسةً للطب ممارسةً وتعلماً وتعليماً، فكان لها أثرٌ كبير فيما بعد ؛ فقد أمدّت الخلفاء المسلمين بأفضل، وأمهر، الأطباء المعروفين وقتئذ ؛ ذلك أن العنصر الأجنبي كان متوافراً في بلاد فارس، ما أعان الدراسة العلمية والعملية، وقد أجاد اللغة السريانية، لغة العلم وقتها، وقد مكنهم ذلك من نقل العلم الإغريقي، كما أنهم كانوا يتقنون اللغة الفارسية فأجادوا معرفة علوم الفرس والهند، فأصبحوا، بذلك، النواةَ العلمية التي قامت عليها مدرسة أو شروان الطبية، تلك المدرسة التي علّمت جورجيس بن بختيشوع[٣].

١- ر. بلاشير: تاريخ الأدب العربي. مجلد ٢ ص٥٨، فيليب حتى: تاريخ العرب ج١ ص١٤٩، ١٥٠، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٣٧٩

٢- راجع ترجمتنا لهذه المدينة، هذه الدراسة ص١٠٩ هامش رقم ١٤٤

٣- هو أبو عبد الله، جبرائيل بن جورجيس بن بختيشوع. اشتهرت أسرته بالدراسات الفلسفية، لكن شهرتها الأكبر كانت بالطب، وبقيت ثلاثة قرون ذات حظوة عند الخلفاء، فكانوا أطباء الخلافة ووزراءها.

ونتيجة لاهتمام الأكاسرة بمدرسة جند يسابور الطبية، وكذا للجوء علماء السريان بمعارفهم وثقافتهم الإغريقية إليها بعد إغلاق جوستنيان[١] جميع المدارس الفلسفية وقتها، أصبحت هذه المدرسة مركزاً علمياً وثقافياً مهماً[٢]، وفي هذا نقرأ " التقى علماء أثينا المهاجرين بعلماء السريان والهند والفرس، فنجم عن هذا نشاطٌ علمي كانت له أهميته في تقدم الفكر الإسلامي، وقد أرسل كسرى أنو شروان أطباءه إلى الهند للبحث عن الكتب ونقلها إلى الفهلوية، وهي لغة الفرس القديمة، من لغتها الأصلية السنسكريتية "[٣].

نقرأ " وعلى الرغم من أن مدرسة الإسكندرية الطبية، ذات الروح الفلسفية، كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة بُعيد الفتح الإسلامي الذي قطع ما بينها وبين بيزنطة، فقد واصل السوريون، في أنطاكية وحران، حماية تراثها وتنميته، ونقلوه إلى بغداد. والواقع أن أثر الكلية الطبية التي أنشأها الساسانيون قبل ذلك في جنديسابور من أعمال السوس، كان أعظم من هذه الناحية، فمن هنا جاءت أسرة بختيشوع الشهيرة بمن أنجبت من كبار الأطباء كجرجيس بن جبريل الذي عالج الخليفة المنصور في بغداد. وفي بغداد التقى الطب اليوناني بالطب الهندي على صعيد واحد ؛ فقد سبق لهارون الرشيد، نفسه، أن استدعى ذات مرة الطبيب الهندي منكه إلى

١- جستنيان الأول، هو فلافيوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس، أحد أباطرة الرومان عاش بين العامين ٤٣٨م، ٥٦٥م اشتهر بمجموعة من الإصلاحات القانونية، وكذلك توسعاته العسكرية. تتخذه الكنيسة الأرثوذكسية قديساً وتتخذ يوم موته، الرابع من نوفمبر العام ٥٦٥م، مناسبة دينية، لكنه لم يكن صاحب أفق واسع، فأغلق المدارس الفكرية التي كانت تهتم بالدراسات الفلسفية.

٢- توماس آرنولد: تراث الإسلام. ترجمة جرجس فتح الله. بيروت ١٩٧٢م ص٤٥٠

٣- توماس آرنولد: تراث الإسلام ص٤٥٠

بغداد، كما سبق البرامكة أن أمروا بنقل بعض كتب الطب الهندية إلى اللغة العربية "[١].

ويشهد أوليري بأن للخليفة أبي جعفر المنصور فضلاً كبيراً احتضانه نوابغ الطب وأعلام الترجمة، فنقرأ قوله " وكان الخليفة المنصور هو الراعي الذي فعل ما يمكن لاجتذاب الأطباء النساطرة إلى مدينة بغداد التي أسسها، وكان ذلك الخليفة أميراً يسعى جهده لتشجيع المتصديين لإعداد ترجمات عربية من المؤلفات الإغريقية والسريانية والفارسية "[٢].

ونعلم أن إيواء الدولة الساسانية للعلماء المضطهَدين من رعايا الرومان والبيزنطيين قد كان عاملاً مساعداً لهؤلاء العلماء على التفتح والابتكار والإبداع، ما مكّن مدرسة جنديسابور أن تستمر في تدريس الطب والفلسفة الإغريقية ثلاثة قرون بعد سقوط الدولة الساسانية، كما وأن جو الحرية التي كفلها حكام المسلمين للعلماء قد مكّن تلك المدرسة من أداء رسالتها العلمية والإنسانية إلى أن أوجدت مدارس طبية وعلمية جديدة، فبدأ نجم مدرسة جنديسابور يأفل.

الرها[٣]:

١- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة نبيه أمين. بيروت ١٩٦٨م ط٥ ص٢٠٣، د. عبد الرحمن بدوي: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص٥٣: ٥٧

٢- ديلاسي أوليري: الفكر العربي ومكانه في التاريخ. ترجمة تمام حسان. القاهرة ١٩٦١م ص١٢٦

٣- راجع ترجمتنا لهذه المدينة، هذه الدراسة ص١٠٨ الهامش رقم ١٤٠، الأصطخري: المسالك والممالك ص٥٤

عنها جاء قول بارتولد " إن لمدينة الرها موقعاً ممتازاً في تاريخ النصرانية وحضارة سوريا، وهي وطن خطير لحضارة سوريا القديمة ومنشأ الكتابة السريانية "[١].

ولقد شهدت مدينة الرها هذه مجادلات دينية حامية بين فرقتين من فرق النصارى، إحداهما تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام، والأخرى تقول بأن للمسيح طبيعتين[٢]، وقد تبنى الإمبراطور زينو وجهة نظر اليعاقبة، ما ترتب عليه أن يصدر أمراً بطرد النساطرة [٣]فتهيأ المد الاجتماعي لخصومهم اليعاقبة[٤].

ومع ذلك فقد استطاعت الرها أن تكون مركزاً حضارياً بما قام به علماؤها ومفكروها من تراجم ومؤلفات لتكون مدينتهم حلْقة اتصال بين الحضارة الإغريقية والعربّ... وإلى هذا جاء القول " الواقع أن دراسة هذه العلوم، اللغة

١- بارتولد: الحضارة الإسلامية ص٤٥

٢- مثّلتْ فرقة اليعاقبة من يقول بأن للمسيح، عليه السلام، طبيعة واحدة، المسيح هو الله !!!. ومثّلت فرقة النساطرة، يُنسَبون للأسقف نسطوريس، من يقول إن للمسيح طبيعتين: اللاهوت والناسوت، وهما طبيعتان متمايزتان ومستقلتان الواحدة عن الأخرى، ومع ذلك فهما مرتبطتان ببعضهما برباط وثيق، وبالطبيعة الإلهية، اللاهوت، يقوم المسيح بكل ما يتعلق بالأمور الإلهية، وبالطبيعة البشرية، الناسوت، يقوم المسيح بكل ما يقوم به الناس، فيسلك كما يسلكون ويحيا كما يحيون، ومن ثم لا تكون السيدة مريم، عليها السلام، أم المسيح ذي الطبيعة الإلهية، بل= =هي أم المسيح ذي الطبيعة البشرية، فالمسيح ذو الطبيعة الإلهية هو الله، بينما المسيح ذو الطبيعة البشرية هو ابن الإنسان.

٣- فيليب حتى: تاريخ العرب ج١ ص١٠٧: ١١٣

٤- هؤلاء منسوبون لمطران الرها يعقوب البردعي، أحد أقطاب المذهب المونوفيزي الذي يقول بالطبيعة الواحدة، أي يقول إن المسيح، عليه السلام، هو الله !!!. كان رجلاً شديد التعصب لمذهبه حتى نُسب إليه فقيل مذهب الكنيسة اليعقوبية.

الإغريقية والعلوم اليونانية، لم تنقطع يوماً من الأديرة السورية، ذلك لأن آباء الكنيسة الإغريقية، ومن جملتهم ثاودورس المسيحي ذو الأثر العظيم في التفسير النسطوري للكتاب المقدس، لم يكن ليُفهَم من غير الرجوع إلى المصطلحات التي استمدها هذا اللاهوت من الفلسفة الأرسطية، لكن الرياضيات والعلوم الطبيعية استطاعت، دائماً، أن تحظى ببعض الاهتمام أيضاً، على الرغم من أن العناية بالمسائل الفكرية كانت محصورةً عند السوريين في أيدي رجال الدين "[١].

كما أنه قد وصلت إلى العرب ترجمة بالسريانية للإلياذة والأوديسّا قام بها الفلكي ثاوفيل بن توما الرهاوي الماروفي، كما وصل إليهم، ولنفس المترجم، قسم بالعربية من الإلياذة[٢]، كما وصلت إليهم، باليونانية والعربية، مؤلفات جدلية دينية أدارها ثيودورس أبو قرة الراهب بينه وبين الهراطقة، أو بينه وبين المسلمين، وكان في مؤلفاته تلك يدافع عن المسيحية[٣].

حران[٤]:

مثّلت حران، إلى جانب ما ذكرناه من مدن، مركزاً حضارياً قام بحماية تراث الأقدمين وتنميته وإيصاله إلى علماء بغداد، ولهذا جاء القول " على الرغم من أن مدرسة الإسكندرية الطبية ذات الروح الفلسفية كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة

١- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ض٣٠١، ٣٠٢

٢- فيليب حتى: تاريخ العرب ج١ ص٣٨٦، بارتولد: الحضارة الإسلامية ص٥٥

٣- مهرجان حنين بن إسحق. بغداد ١٩٧٤م ص٤٠٠ وما بعدها

٤- راجع ترجمتنا لهذه المدينة، هذه الدراسة ص١٠٧ الهامش رقم ١٤٢

بُعيد الفتح العربي الذي قطع ما بينها وبين بيزنطة، فقد واصل السوريون في أنطاكية وحران حماية تراثها وتنميته ونقله إلى بغداد "[١].

ولما كان الفاتحون المسلمون حديثي عهد باللغة الإغريقية واللاتينية، وبالحضارات القديمة بوجه عام، ولرفعهم مبدأ التسامح، فقد سعوا إلى الحفاظ على كل المراكز العلمية التي وقعت تحت سيطرتهم، واستعانوا بأبناء تلك المدن على نقل ذلك التراث القديم إلى العربية، إما مباشرة من لغته الأم، وإما باتخاذ السريانية وسيطاً، ويقول فيليب حتى: ولكن العرب لم يعرفوا اليونانية فاعتمدوا، في أول أمرهم، على ترجمات أخرجها لهم اليهود والوثنيون والنصارى وخاصة النساطرة من النصارى، وكانت طريقة هؤلاء النساطرة، وهم سريان، أن ينقلوا الكتاب اليوناني إلى لغتهم السريانية ثم يترجمونه بعدئذ من السريانية إلى العربية، وهكذا أصبحوا أعظم حلقة للاتصال بين الثقافة الهيلينية وبين الإسلام، فالثقافة الهيلينية لم تصل إلى العقل العربي إلا عن طريق اللغة السريانية[٢].

*** *** *** *** *** *** ***

لا شك أن تبادل الثقافات، والحضارات، قديمٌ قِدمَ الإنسان، حيث أخذت الجماعات الأولى بعضها عن بعض، وقلدت وحاكت، واخترعت وابتكرت، فأعطت بقدر ما أخذت، ووجهت وقادت، وتلك سنة الله في خلقه كما أنها وسيلة من وسائل التغيير والتجديد. ونعتقد أن تارد، أحد كبار علماء الاجتماع الفرنسيين المعاصرين، قد اتخذ قانون المحاكاة أساساً لتفسير الظواهر الاجتماعية على اختلافها.

---

١ - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢٠٢

٢ - فيليب حتى: تاريخ العرب ج١ ص٣٨٥، أحمد أمين: فجر الإسلام ص١٣٠

ومن الخطأ أن يظن ظان أن العرب في العصر الجاهلي قد كانوا بمعزِل عمن حولهم من أصحاب الحضارات والديانات ؛ فقد صار معروفاً أن عرب هذه الفترة قد نفذت إليهم الديانتان اليهودية والمسيحية، فكان أن عرفوا بعض تعاليم الديانتين الفارسيتين: الديانة المزدكية[١]، نسبةً للفارسي مزدك، والديانة المانوية[٢]، نسبةً للفارسي ماني. كما وقفوا على شيءٍ كثير من نتاج الثقافات الشرقية والغربية.

لكن ما أن جاء الإسلام ونشر ألويته شرقاً وغرباً، حتى وثق اتصال العرب بالحضارتين الرومانية واليونانية في الشام ومصر وشمال إفريقيا وبلاد الأندلس، كذلك وثق اتصالهم بالحضارة الفارسية والهندية وحضارات ما وراء النهر.

واعتنق الإسلامَ كثيرٌ من أبناء شعوب هذه الحضارات فتآخوْا مع العرب، ومن بقي منهم على ديانته القديمة حظي بتسامح وعطفٍ كبيرين، وتعاونَ مع جيرانه ومواليه من المسلمين تعاوناً صادقاً، وهذا كله أهّل لقيام اختلاط وتبادل حضاري مهّدا للحضارة الإسلامية التي عمّرت طويلاً.

١- مزدك، داعية ديني فارسي، أسس ديانة فارسية قديمة فنُسِبت إليه فيقال " مزدكية ". أقام مزدك ديانته على مبدأين: الخير والشر، أو النور والظلْمة، هذا على مستوى الاعتقاد، أما على مستوى الاجتماع فقد تأسست هذه الديانة على مبدأ= =شيوعية المال والنساء ؛ فعلى الناس أن يشارك بعضهم البعض في الأموال كما في النساء !!!. أيد الملك الفارسي قباذ الأول المذهب المزدكي منذ العام ٤٨٨م إلى أن خلعه عن العرش كسرى أنو شروان وأعاد الديانة الزرادشتية ديانة رسمية للدولة.

٢- هو ماني بن فاتك، أسس ديانة فارسية قديمة في القرن الثاني الميلادي، وحاول أن يوجد صلات بين ديانته التي يدعو إليها وبين المسيحية والبوذية والزرادشتية، ما جعله يرى في كل من بوذا وزرادشت وعيسى أسلافاً له.

والثابت أن المسلمين لم يقنعوا بهذا الاختلاط والتبادل المشار إليهما، فقادوا حركة علمية نشيطة، وكان طبيعياً أن يبدءوا فيها بالدراسات الدينية واللغوية[١]، ثم أضافوا دراسات في العلوم الطبيعية والرياضية والطب والكيمياء والفلك والهندسة. وقد أدرك المسلمون الحاجة الماسة إلى الوقوف على ما سُبِقوا إليه، وعلى ما انتهت إليه الثقافات القديمة من درس وبحث، فقاموا بترجمة كل هذا إلى لغتهم العربية.

وتعد حركة الترجمة في الحضارة الإسلامية واحدةً من أنشط الحركات العلمية في التاريخ وأشملها وأطولها نَفَساً، ساهمت فيها الدولة بكيانها الرسمي، كما ساهم فيها الأفراد، وتبدّى هذا كله في الاستعداد لهذه العملية من إنشاء " بيت " الحكمة كمكان يلتقي فيه المترجمون وتُحفظ فيه الترجمات، كما أُرسلت البعثات شرقاً وغرباً للبحث عن الأصول والمصادر والمراجع، وكذا أُرسلت البعثات إلى الإسكندرية وبيزنطة وريثي الحضارتين اليونانية والرومانية، وكان أكثر الاعتماد، في الترجمة، على من يجيد لغتين فأكثر، وكان أكثر هؤلاء من النساطرة واليعاقبة ما أهلهم لأن يكونوا من أوائل المعلمين في الحضارة الإسلامية، ثم شاركهم المسلمون في حركة الترجمة فقاموا بالترجمة من العبرية والسريانية والفارسية والسنسكريتية، وقامت ترجمة من اليونانية إلى العربية مباشرةً أو بتوسط السريانية، وكذا الحال مع اللاتينية.

١- مثّل هذا الاتجاه من قِبل القائمين على الأمر، وقتها، وعياً كبيراً ؛ فالبدء بالعلوم النظرية يعني البدء بتشكيل العقلية المتلقية قيمياً، ما يمهد لقدر كبير من الاعتزاز بالذات التي سيتم تشكيلها على أسس جديدة جِدة كاملة، ولعل ولاة الأمر، وقتها، تمثّلوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث صرف من الوقت في تشكيل فكر المسلم أكثر مما صرف في الجانب العملي، وهذا واضح حال= =المقارنة بين مدة بقائه، صلى الله عليه وسلم، في مكة، ومدته في المدينة.

ونال المترجمون اهتمام الدولة ممثلةً في الحكام الذين أعطوا المترجمين مكانة اجتماعية خاصة دليلاً على اهتمامهم بما يقومون به من عمل ممهد للحضارة.

دامت حركة الترجمة ثلاثة قرون، أو يزيد، وبدأت في أخريات القرن السابع الميلادي، ونشطت كثيراً في القرن التاسع، وامتدت إلى القرنين العاشر والحادي عشر، وأسسها، وأسهم فيها، الأمويون ودفعها العباسيون، وخاصة المنصور والرشيد والمأمون، فكان أن استوعبت مواد مختلفة من دين وأدب وقصص وتاريخ وعلوم وفلسفة، وأصبحت بغداد، وريثة الإسكندرية وأثينا، مقصد الباحثين والدارسين من كل أطراف العالم الإسلامي[١].

وإذا أمكن القول بأنه منذ ابتداء العصر الأموي أخذت حركة النقل والترجمة تظهر شيئاً فشيئاً ن فإنه يمكن القول بأن تلك الحركة قد بلغت، أعلى ما قُدّر لها أن تبلغه، وذلك في عصر المنصور، أبي جعفر[٢]، وهارون الرشيد والمأمون، وهم خلفاء عباسيون، والخلافة العباسية مشهودٌ لها أنه في عصرها قد بلغ العلم العربي / الإسلامي أوج مجده.

أما أبو جعفر المنصور فقد وجّه اهتمامه، وعنايته، إلى ترجمة علوم الطب والفلك، لذا انتشرت، بعهده، ترجمات الكتب ذات الصلة بهذه العلوم.

١- مهرجان حنين بن إسحق. بغداد ١٩٧٤م ص٣٤٣، ٣٤٤، أحمد أمين: فجر الإسلام الأبواب الأول والثاني والثالث والرابع ص١: ١٣٩، د. طه حسين: مرآة الإسلام. دار المعارف. القاهرة ١٩٩٠م ص١٠

٢- أصل لقبه المنصور بالله. وقد تلقّب الخلفاء العباسيون، جميعهم، فيما بعد، بهذه الألقاب ذات المظهر الورع.

وأغلب الظن، إن لم يكن جملة اليقين، أن العرب، في ذلك الوقت، لم يهتموا بترجمة كتب الأدب اليوناني، مع التسليم بأنه قد قامت محاولة لترجمة الإلياذة والأوديسّا، قام بها ثيوفيلوس، وكان فلكياً مقيماً في قصر المهدي ثالث الخلفاء العباسيين، غير أن تلك الترجمة لم يكن لها أي أثر أدبي في الذهنية العربية فلم تعمّر طويلاً[١]، ذلك لأن العرب كانوا ينظرون إلى الأدب اليوناني باعتباره أدباً وثنياً، علاوة على اعتزازهم بأدبهم.

أما في عصر هارون الرشيد، فقد زاد الإقبال على الترجمة والنقل، فكان الرشيد أشد حماسةً من المنصور تشجيعاً لحركة الترجمة ونقل علوم الأقدمين، وكانت اتجاهاته نحو سوريا وأنطاكية لما كانتا تمثلانه من أهمية ثقافية وحضارية، ولما كانتا تحتويان عليه من نفائس الكتب[٢].

أنشأ هارون الرشيد داراً كبيرة للكتب باقتراح من يوحنا بن ماسوية، وبلغت هذه الدار درجة كبيرة من الأهمية في عصر المأمون[٣] الذي كان عالماً مثقفاً محباً للعلم

١- فيليب حتي: تاريخ العرب ص٣٨٦

٢- عمورية وأنطاكية مدينتان كان لهما تاريخ علمي متميز. كانت عمورية مدينة رومية ذات شهرة كبيرة. حاصرها الخليفة المعتصم في حرب طويلة. وكانت أنطاكية مدينة شامية ذات أهمية كبيرة، خاصة أيام الحروب الصليبية. تقع على نهر العاصي، ولا تقل أهميةً عن دمشق. إلى هذه المدينة ينتسب بطارقة الكنيسة الشرقية، ومن رجالها أبو القاسم علي الفقيه الأصولي.

٣- يذكر التاريخ أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور هو من أسس " بيت الحكمة " بعد إنشائه مدينة بغداد. أنشأ المنصور بيت الحكمة في قصر الخلافة وأشرف عليه بنفسه ليكون مركزاً للترجمة إلى العربية. بلغ " بيت الحكمة " أهمية مطلقة في عهد المأمون الذي أولاه عناية كبيرة فضم، إلى جانب المترجمين، النساخين والخازنين الذين يقومون بتخزين الكتب، والمجلدين وغير ذلك من العاملين. بقي بيت الحكمة قائماً إلى أن احتل المغول بغداد العام ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ.

والعلماء وذهب لأبعد حد في تأييد الحركة العلمية التي بدأت قبل توليه الخلافة، فقد اهتم بدار الكتب وأقام عليها سهل بن هارون[١] رئيساً حتى شبهها البعض بالأكاديميات العلمية[٢].

وكان لتوجه المأمون نحو العلم والعلماء أثرٌ كبيرٌ في تقديس العلم، ما مهد لتقدم الحركة العلمية في دولة الخلافة بأسرها، كذا اتجهت الأسر ذات الثقل الاجتماعي نحو الاهتمام بالعلوم والعلماء فاستقدمت المترجمين واهتمت بهم، ومن أشهر هذه الأسر أسرة موسى بن شاكر[٣].

ويذكر ابن النديم، في الفهرست، غير دليل على كرم هذه الأسرة وسخائها مع العلماء، فيذكر ما قاله أبو سليمان السجستاني " إن بني المنجّم، وهم يُعرفون، أيضاً، ببني شاكر، كانوا يرزقون جماعة من النقلة، منهم حنين بن إسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة، في الشهر خمسة مائة دينار للنقل والملازمة "[٤].

لكن النقل والترجمة، مع الإقرار لهما بالفضل، لا يقيمان حضارة ولا ينميان علماً، حيث نعتقد أن قيام الحضارة، وكذا العلم، لا بد له من أجيال تتطور وأقوام

١- هو: أديب عراقي ولد بالبصرة لأسرة فارسية أخذ عنها التوجه الشعوبي، نشأ وتعلم في بغداد، عمل للبرامكة وللمأمون في مكتبته وكذا في بيت الحكمة. حاول أن يسير في تآليفه الأدبية سيرة ابن القفع في كليلة ودمنة.

٢- أبو الفتوح التوانسي: من أعلام الطب العربي ص٢٠ وما بعدها

٣- أبناء موسى بن شاكر هم: محمد وأحمد والحسن، وهم أبناء شاكر المنجّم. اهتموا بالعلوم القديمة وكانت لهم يد متقدمة في امتلاك المكتبات الأصلية وترجموا وألفوا كتباً كثيرة، وإلى جانب اهتمامهم بالفلك والهندسة والموسيقى فقد أنشأوا، بدارهم في بغداد، مرصداً.

٤- ابن النديم: الفهرست. القاهرة ١٣٤٨هـ ص٣٠٤

تتفهم من خلال منهج قويم وخبرة عميقة وعبقرية رائدة خلاّقة، ثم حركة واعية مدركة لتفسير ما تم نقله (= ترجمته)، ثم تأليف جديد يساير تطور الحياة ومتطلبات الأزمان. وللحقيقة، فقد قام العرب بكل هذه الإجراءات حين أخذوا علوم اليونان وترجموها، بفضل الناطقين بالسريانية خاصة، ثم بدءوا تأسيس حضارة عربية حية، وفي ذلك نقرأ ما قالته زيجريد هونكة المستشرقة الألمانية " لم يكن ما أنقذه العرب من ثقافات ليحفظ في المتاحف والأقبية بعيداً عن النور والهواء، كلا، إن كل ما أنقذوه من الفناء قد خرجوا به من عالم النسيان والتعفن وبعثوا فيه حياة جديدة وجعلوه في متناول كل راغب عن طريق ترجمته، وقد ترجموه ليس إلى لغة جامدة غريبة، بل ترجموه إلى لغة حية في كل مكان آنذاك، وهي لغة القرآن "[١].

ويمكن التأكيد على أن القرن التاسع عشر يمثل العصر الذهبي لحركة النقل والترجمة، حيث شهد هذا العصر كبار العلماء والمترجمين أمثال حنين بن إسحق وإسحق بن حنين وحبيش بن الحسن الأعسم، وهو ابن أخت حنين، وثابت بن قرة وقسطا بن لوقا البعلبكي ويوحنا بن البطريق والرأس عيني وابن المقفع ويحيى بن ماسرجوية ويوحنا بن ماسوية[٢]. ولم يكن هؤلاء المترجمون مجرد " نقلة " لعلوم القدماء، بل كانوا، إلى جانب درايتهم / خبرتهم بأصول النقل والترجمة، ملمّين بما هو بين أيديهم، وكانوا، أيضاً، يقومون بالتأليف كلٌّ في تخصصه.

هذا، وقد كان لهؤلاء المترجمين طريقة فريدة ؛ فقد كان الواحد منهم يقوم بعملية التأليف عبر تقديمه لموضوعه بفكرة عامة، وهو ما يمكن أن نسميه، الآن،

---

١ – فاروق بيضون (مترجم): أثر الحضارة العربية في أوروبا. بيروت ١٩٦٤م ص٣٧٨

٢ – توماس آرنولد: تراث الإسلام ص٤٥٠، ٤٥١، بدر الدين القاسم (مترجم): تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ج١ ص١٥٣ ١٩٨٣م

بالتمهيد أو بالمدخل، وربما تأثروا في ذلك بمطالعاتهم كتبَ المنطق، مدخل فورفوريوس الصوري، كما أنهم كانوا يعدون قائمة بكبار الباحثين ومؤلفاتهم تيسيراً على الدارسين وإتقاناً لنقل العلم ومساعدة على نشر الثقافة.

ويمكن اعتبار حنين بن إسحق[١] " شيخ " المترجمين وإمام التراجمة في الإسلام[٢]، فهو من أوائل من قاموا بهذا العلم حيث كان متمكناً من السريانية، وقد كانت لغةَ الكنيسة المنتمي إليها، كما درس الفارسية. ثم العربية في البصرة على أيدي تلاميذ الخليل بن أحمد[٣]، ما مهّد لأن يتقنها ويبدع بها ما شهد له به المؤرخون، فأصبح بذلك " بارعاً بالسان العرب، فصيحاً باللسان اليوناني، بليغاً في اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين "[٤]. كما أصبح " يعرف لغة اليونان معرفةً تامة "[٥]، حتى قيل بحقه " لم يوجد في هذه الأزمنة، بعد الإسكندر الأفروديسي، أعلم منه باللغة العربية واليونانية "[٦].

١- هو حنين بن إسحق العبادي. يكنى ابا زيد. والعباد قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية ديانةً في القرن الأول الميلادي. انفردوا عن الناس في قصور لهم اقاموها في الحيرة التي كانت تنتمي إلى الكنيسة النسطورية.

٢- جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي. القاهرة ١٩٠٥م ج٣ ص١٣٩، فيليب حتى: تاريخ العرب ج١ ص٣٨٧، صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص٣٦

٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص١٨٩، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٥٠ ص٢٦٠ ص٣٥٠

٤- أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي (ابن جلجل): طبقات الأطباء ص٦٨

٥- ابن خلكان: وفيات الأعيان ص٤٥٥

٦- علي بن زيد البيهقي: تتمة صوان الحكمة ز القاهرة ١٩٣٥م ص٣

ونعلم أن حنين لم يتصدَّ لمسؤولية الترجمة إلا بعد أن أتقن لغاتٍ أربعة: هي العربية والسريانية واليونانية والفارسية، وأصبح ضليعاً في الطب مع إلمام جيد بالعلوم الأخرى الشائعة وقتذاك، مع خبرة عميقة بخبايا الحضارة الهيلينستية والتي كانت تمثل المشعل الحضاري والثقافي وقتها[١]، فبالرغم من اهتمام حنين بالطب، تأسيساً على ما ظهر لنا من مؤلفاته الطبية[٢]، إلا أنه كان شديد العناية بالترجمة مولعاً بها، حتى إنه، من أجل تخريج أجيال عالمة من المترجمين، أنشأ مدرسة كانت بمثابة النواة التي تخرج منها علماء مثّلوا دعائم الثقافة العربية.

ترجم حنين لأرشميدس وأبولونيوس، كما ترجم لأفلاطون الجمهورية وتيماوس، وترجم لأرسطو المقولات والطبيعيات والأخلاق الكبرى والمعادن، وترجم لإقليدس، وترجم كل أعمال جالينوس وأبقراط، وكانت ترجمته مما يشهد له بالنبوغ في الترجمة وتمكنه في الطب الذي يرجع فيه الفضل إلى حنين حيث ترجم للطبيب ديوسقوريدس Diosocoridos الأقرباذين (= مادة الطب) إلى اللغة العربية[٣].

كان حنين يقوم بالترجمة من اليونانية إلى السريانية، ثم يقوم حبيش، ابن أخته، بالترجمة من السريانية إلى العربية، وقد يقوم إسحق، ابنه، بالترجمة إلى العربية مباشرة ويراجع عليه أبوه.

١- صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص٣٦، جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج٣ ص١٣٩، فيليب حتى: تاريخ العرب ج١ ص٣٨٧

٢- لحنين مؤلفاتٌ طبية، من أشهرها: مسائل في الطب، ورسالة في العين.، يراه المؤرخون أنه أول كتاب نظامي في طب العيون.

٣- روم لاندو: الإسلام والعرب. ترجمة منير البعلبكي. بيروت ١٩٦٢م ص٢٦١

وإذا كنا نجد بعض كبار المترجمين يتقيد في ترجماته بالحرف، وفي ذلك ما فيه من العيوب، فإن حنين بن إسحق لم يصرفْ همه إلى حَرفية الترجمة، لكنه اهتم، عبر تمكنه من الغربية التي يترجم إليها ومن اللغة الأخرى التي يترجم منها، بالمعنى وما يؤديه، وذلك من خلال تعبيرات علمية سلسة وسليمة[١].

وأهم ما يميز حنين أمانته العلمية، وكذا تقديسه غير المحدود لمهمة العلم والعالم، وفي ذلك نعلم الذي وقع له حين طلب إليه الخليفة المتوكل أن يصنع له دواءً يقتل به عدواً له !!!، فرفض حنين وامتنع عن الطلب الخليفي، ولم يفلح معه الترغيب والترهيب، بل ولا التهديد بالسجن، وقد نُفّذ، عاماً، كما لم يفلح معه الإغراء بالمال، ولا التلميح بمزيد من الاحترام والوجاهة الاجتماعية. ولما طُلب إليه تعليل ذلك قال: منعني الدين والصناعة ؛ فأما الدين، فيأمرنا باستعمال الخير والجميل مع الأعداء فكيف بالأصدقاء ؟، وأما الصناعة (= الطب)، فتمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على معالجتهم. وبذلك كان حنين وفياً للقسم الذي وعد اللهَ به، كطبيب، أن ينفع الناس وخاصة المرضى منهم، كما كان بذلك صاحب عقيدة راسخة وشخصية فذة وأمانة مطلقة[٢]. ذلك كله مهّد لأن يقول فيه لوكلير " كان حنين أعظم شخصيات القرن التاسع، وكانت له عقلية من أفضل العقليات وخلق من أحس الأخلاق التي نعرفها في التاريخ "[٣].

١- ابن النديم: الفهرست ص٤٢٣

٢- القفطي: تاريخ الحكماء ص١٧٦، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص١٨٨، ابن العبري: مختصر الدول ص٢٥١، ٢٥٢

٣- L.Leclerc; Histoire De La Medecine Arabe. Paris ١٨٧٦ vol١ p١٣٩

وفي حران[١]، عرف فضل الطبيب والفيلسوف الحسّاب والمترجم ثابت بن قرة (٢٢٢هـ: ٢٨٨هـ) كواحد من أبرع المترجمين وأشدهم تدقيقاً ؛ فالرجل من أسرة عريقة في العلم أدت خدمات جليلة في العلوم الرياضية والفلكية عند العرب، وأسهمت بنصيب وافر في التراث العلمي للعرب. عاش في بغداد واشتغل بالطب والفلك والفلسفة، ونقل كثيراً من الكتب إلى العربية وأضاف وابتكر الكثير في الرياضة والطب. وإلى ديانته يعزي المؤرخون اهتمامه وعنايته بالتنجيم والفلك والرياضيات[٢].

وقد عجز كثير من المترجمين قبله عن نقل بعض كتب الفلك والرياضة، فلما أسند إليه المأمون مهمة نقل الكتب ترجم ما استعصي على غيره، فترجم المجسطي[٣]، وترجم لإقليدس وأرشميدس وأبولونيوس، وهي كتبٌ صارت مناهل لرواد الفلكيين والرياضيين العرب والمسلمين.

وفي بعلبك ظهر الطبيب السوري قسطا بن لوقا (٢٠٤هـ: ٢٩٩هـ) وكان بارعاً في الطب والفلسفة والهندسة، جيداً في اليونانية والعربية معاً[٤]، وكذا اشتهر ترجمته لكثير من كتب الطب والفلسفة والموسيقى والحساب والفلك، وكان، إلى جانب ذلك، طبيباً ماهراً ومؤلفاً جيداً. ومن أحسن كتبه رسالة ألفها في الفرق بين

١- راجع ترجمة لها: هذه الدراسة ص١٠٧ الهامش رقم ١٤٢

٢- فيليب حتى: تاريخ العرب ج١ ص٣٨٩ وقد كان ثابت صابئياً، والصابئون قوم كانوا، كما جاء في القرآن الكريم، يعبدون النجوم، وهم ينقسمون إلى مؤمنين وكافرين.

٣- المجسطي: هو اسم الكتاب المشهور الذي ألفه بطليموس الرياضي الفلكي اليوناني، وهو كتاب يبحث في العلاقة بين الأرض والسماء وتأثير الكواكب في الأرض، وفيه الأرض مركز الكون. انتقد ابن الأفلح الأندلسي هذا الكتاب في كتاب له بعنوان " إصلاح المجسطي "

٤- ابن النديم: الفهرست ص٢٤٤

النفس والروح. وعنه يقول ابن النديم: كان جيد النقل، فصيح اللسان باليونانية والسريانية والعربية، وقد نقل أشياء وأصلح نقولاً كثيرة[١].

وفي العراق، شمالاً، يمكن للباحث أن يجد واحداً من المترجمين اللامعين الأوائل، سرجيون الرأس عيني[٢]، وكان أول شخصية علمية شهيرة لدى الناطقين بالسريانية، ولم يكن نسطورياً بل يعقوبياً. كان إماماً لأطباء العراق، بلده، وهو من شرع في ترجمة آثار الإغريق إلى اللغة السريانية، ونسبت إليه تراجم كثيرة لآراء جالينوس، وعنه انتشرت العلوم الطبية الأغريقية غربي آسيا لأكثر من قرنين[٣].

وأما ابن المقفع[٤]، وحوله دار جدل طويل، فيعد في مقدمة المترجمين عن الفارسية، ولقد أخذنا، نحن العرب، معلوماتنا عن تاريخ ألأرستقراطية الإيرانية من ترجمته " سير الملوك "[٥]، كما أن عبد الله بن المقفع قد ترجم " كليلة ودمنة "، المترجمة من الهندية إلى الفهلوية، ترجمها ابن المقفع إلى العربية، وإلى هذه الترجمة يعود الأثر الكبير في النثر العربي والقصة[٦]، إذ تعتبر هذه الترجمة بداية أدب الرواية عند العرب.

١- ابن النديم: المصدر السابق. نفس الموضع

٢- هو سرجيوس الرأسعيني، نسبة إلى رأس عين (رش عينا) الواقعة شمال العراق فيما يرويه مايرهوف.

٣- توماس آرنولد: تراث الإسلام ص٤٥٠

٤- عن النظرة " الدينية " إلى ابن المقفع، راجع: عالم الفكر. عدد أكتوبر العام ١٩٨٣م ص٢٢٣: ٢٤٦

٥- بدر الدين القاسم: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. بيروت ١٩٧٢م المجلد الأول ص١٥٥

٦- علي حسني الخربوطلي: الحضارة الإسلامية. القاهرة ١٩٦٠م ص١٦٠

وأما ماسرجس اليهودي[١]، فقد ترجم إلى العربية من السريانية كتاب الطب " كناشة أهرون " للقس النصراني والطبيب هارون السكندري، وهو مؤلف طبي يعتبر من أقدم ما ألف في الطب، ويكفي أنه قد اشتمل على أول وصف لمرض الجدري[٢].

*** *** *** *** *** *** ***

وإذا كانت بدايات العلم العربي قد بدأت من مدن علمية محدودة، فإنه لم يمر زمن طويل حتى كثرت المدن التي صارت، بعد، مراكز علمية على أعلى مستوىً من الدقة والفهم، وصارت تلك المراكز تتركز في بغداد والبصرة وخراسان وبلاد الشام والحجاز ومصر، وأصبح بيت الحكمة والجامع المنصور في بغداد، ومكتبة ابن سوار في البصرة، ودار العلم في الموصل، ومكتبة ابن الشاطر والجامع الأموي في دمشق، والجامع الأزهر ودار الحكمة في القاهرة، ومدرسة جنديسابور في خراسان تمثل مراكز علمية، وكذلك كانت بمثابة معاهد للعلم في أرقة صوره في هذه الفترة.

ولقد اشتهرت هذه المراكز، منذ تأسيسها أو تمصيرها، بكثرة معاهد العلم والدرس ودور الكتب بها، ما جعلها تلعب دوراً كبيراً في ظهور جمهرة من المشتغلين بالأدب والعلم والفن والطب والفقه والفلسفة، وبسهولة يمكن الاستدلال على ذلك باستعراض مئات التآليف والتصانيف في تاريخ العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة والمهندسين والحفّاظ والنحاة واللغويين والحُسّاب والمعلمين والقُصاص

١- يُعرف ماسرجس اليهودي هذا بـ " يحيى بن ماسرجويه السوري ".

٢- توماس آرنولد: تراث الإسلام ص٤٥١

والأدباء والشعراء والقراء وقراء الأنغام والمتكلمين والكتّاب والمجتهدين والطبيعيين والمسّاحين وعلماء الفلك[١].

كل هؤلاء العلماء قد نبغوا في تلك المراكز العربية وصاروا قاعدة يقتدى بها في الاهتمام بالمعرفة الإنسانية من جميع جوانبها، وقد أسهم عدد كبير منهم في الدراسات الدينية[٢]، وكانوا يشتغلون بالتدريس في المدرستين النظامية والمستنصرية ببغداد ويدرسون علوم القرآن وفضائله والتفسير والخلاف والأصول والفقه.

وكذلك أسهم بعضهم في دراسات علوم الحديث[٣] والدراسات اللغوية والأدبية في النحو والصرف والعَروض والبلاغة والنثر الأدبي والشعر[٤]، وكذلك في الدراسات التاريخية والجغرافية[٥]، كما نبغ في العلوم العقلية والفلسفية والطب أعلام تركوا أثرهم الواضح في الحركة العلمية العربية ثم العالمية، ومن بينهم فيلسوفنا ابن

١- فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة د. صالح العلي. بغداد ١٩٦٣م ص٥١٨ وما بعدها

٢- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق محمود محمد الطناحي. القاهرة ١٩٦٤م ج٨ ص٣٦٨

٣- ابن خلكان: وفيات الأعيان. القاهرة ١٩٤٦م ج٤ ص٢٦

٤- ابن الأثير: الكامل. بيروت ١٩٦٧م ج١ ص٣١٢

٥- من المؤرخين المشهورين ابن الأتقى البغدادي المتوفّى ٦٠٧هـ، الذي أخذ عنه القفطي في تاريخ الحكماء، وابن المفرج التكريتي في كتابه الاختصاص في التاريخ الخاص، وموفق الدين بن اللباد البغدادي المتوفّى ٦٢٩هـ ـ وغيرهم ممن اشتغلوا بالتاريخ منذ القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن الثامن. وفي الجغرافيا برز ياقوت الحموي في كتابه " معجم البلدان "، والمقدسي في كتابه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم "، وابن عبد الحق في كتابه " مراصد الاطلاع في الأمكنة والبقاع ".

سينا وأبو الريحان البيروني الذي اشتغل بالفلك والرياضة والعلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ حتى لُقّب بالأستاذ، وجابر بن حيان الكيميائي الأشهر تلميذ جعفر الصادق، بالإضافة إلى ما ألفه في الطب والرياضيات والفلسفة، وموفق الدين عبد اللطيف البغدادي العالم الأديب اللغوي، علاوة على نبوغه في العلوم الدينية وعلوم العربية، والجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محجوب البصري، صاحب كتاب الحيوان، وجعفر البلخي الذي كان من أعظم فلكيّ العرب والذي ترك لنا نحو سبعين كتاباً في علم الفلك، والرازي الذي يعد واحداً من مشاهير الطب العربي في العصور الوسطى، وقد سبق طبه علمه بالكيمياء، كما أن له كتباً في الفلسفة والطبيعة والموسيقى والفلك والرياضيات، وابن الهيثم، الحسن بن الهيثم، الذي ترك لنا في علمي الطبيعة والضوء دراسات وبحوثاً لها قيمتها العظيمة، كما اهتم بتحصيل الفلسفة والطب والفلك والرياضة، لكن اهتمامه بعلم الطبيعة وعلم الضوء كان له السبق، كما أنه كتب رسائل في علم الحساب والجبر وحساب المثلثات والهندسة الإقليدية المستوية والمجسمة، وإخوان الصفا الذين كانوا يمثلون جمعية سرية فلسفية علمية ابتغت، كما يقولون، الوصول إلى تجديد في السياسة والأخلاق عن طريق اندماج التشريعات الإسلامية[1] !!!، والفارابي الذي يعد واحداً من أشهر الفلاسفة الإسلاميين، والذي برز في الدراسات العقلية كالرياضيات والفلسفة والمنطق، وبرز في الطب والموسيقى، وكتب ما يزيد على سبعين مؤلفاً في الطبيعة والرياضيات والميتافيزيقا والأخلاق والسياسة، والقزوين، زكريا بن محمد بن محمود، كان معنياً

---

١ - لما كانت دراستنا هذه مختصةً بالجانب العلمي عند ابن سينا، فسنكون في حلٍّ من نقد هذه الجماعة !!! لكن الأمانة العلمية تحتم علينا أن نشير، ولو في عجالة، إلى أن هذه الجماعة كانت ذات أهداف باطنية سياسية أكثر مما هي علمية، وعسانا نعرض لها في مؤلف ذي صلة بالفرق الإسلامية.

بالكتابة في الجغرافيا، ومن أشهر كتبه " عجائب المخلوقات "، كما اهتم بدراسة الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن، وداوود الأنطاكي الذي لُقب بالحكيم الماهر والطبيب الحاذق، والذي كان مهتماً بدراسة الطب العلاجي وتحضير الأدوية، والكندي الذي عُرف بدراسة الفلسفة والطب والمنطق والرياضيات والحساب والهندسة والفلك، وقد كان مهندساً قديراً وطبيباً وفيلسوفاً عظيماً، والخوارزمي، محمد بن موسى، الذي اشتهر بعلمه في الرياضيات والفلك، ويعتبر أول من ألف في الجبر، حتى ترك لنا مؤلفات اعتمد عليها العلماء العرب في دراساتهم وبحوثهم الرياضية، وثابت بن قرة الذي يعتبر أعظم مهندسي العرب على الإطلاق، علاوة على نبوغه في الهندسة التحليلية [١].

*** *** *** *** *** *** ***

نظرة على كتب ابن سينا العلمية:

لم تكن حياة ابن سينا حياة هادئة، كما أنه لم يعمّر طويلاً، فكل الدراسات تتفق على أنه قد توفّي وعمره ثمان وخمسون سنة

، مر الجزء الأكبر منها في مشاكل وقلاقل سياسية، حيث كانت القلاقل سمة من سمات العصر الذي نشأ فيه ابن سينا.

١- لمزيد من التفاصيل عن الحركة العلمية في المشرق العربي، راجع: د. مصطفى جواد: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير. بغداد ١٩٣٤م ج٩ ص٢٩٧، ٢٩٨، محمد عبد القدوس: تلخيص مجمع الآداب لابن الغوطي. الهند ١٩٤٠م ص٣٣٨، ٤٣٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١٢ ص٣١٢، مجلة عالم الفكر. المجلد الثالث عشر العدد الثاني ص٢٨٧ وما بعدها

ولم يكن اشتغاله بالسياسة والوزارة مما يترك له سعة من الوقت للتأليف والكتابة[١]، لكنه مع ذلك كله كان غزير الإنتاج، كثير التآليف، وقد كانت مؤلفاته تعكس ذكاء ابن سينا وعبقريته، وقد زادت هذه المؤلفات عن المائتين، ويقع بعضها في عدة مجلدات.

يقول الدكتور الأب بولس مسعد: كل فضلة من الزمان خصصها ابن سينا للمطالعة والكتابة، والوقت الذي لم يحصل عليه في النهار يبحث عنه في الليل، حتى إنه لم ينم ليلةً كاملةً. كان يصرّف أمور الدولة في النهار، ويجلس للتدريس والكتابة بالليل، وكان في السفر يحمل معه أوراقه قبل زاده، ومتى تعب يجلس مفكراً كاتباً، وفي السجن كان يطلب الورق والحبر قبل الخبز والماء[٢].

وليس أدل عّلى كون ابن سينا ذا همة عالية لم تسبق في التأليف والكتابة من أن أساتذة كباراً قد خصصوا لمؤلفات ابن سينا فصولاً في كتاباتهم:

أولاً: مؤلفات ابن سينا: الأب الدكتور جورج شحاتة قنواتي، بتصدير الأستاذ أحمد أمين وتقديم الدكتور إبراهيم بيومي مدكور. وهذا الكتاب سفر عظيم الأهمية، قام به الأب قنواتي بتكليفٍ من جامعة الدول العربية لحصر كتب ابن سينا في مكتبات العالم وخاصة في مكتبات الأستانة، ثم وصف هذه الكتب وتقسيمها إلى

١- حنا الفاخوري: تاريخ الفلسفة العربية ج٢ ص١٦٠ وما بعدها، د. فتح الله خليف: فلاسفة الإسلام. القاهرة ١٩٧٦م ص٦ وما بعدها، البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ص٥٦، القفطي: تاريخ الحكماء ص٤١٧، ٤٢٥، ابن أصيبعة: عيون الأنباء ص٤٤٠: ٤٤٥

٢- مجلة المقتطف. عدد إبريل ١٩٥٢م ص١٠

موضوعات، ثم محاولة ترتيبها زمنياً حسب تأليف ابن سينا لها، وهذا، للحق، مجهود ورهبنة، كما يقول الأستاذ أحمد أمين، في العلم كرهبنة الدين[١].

ثانياً: مؤلفات ابن سينا في الفلسفة الطبيعية:[٢] للدكتور محمد عاطف العراقي. وهو فصل واسع يعرض بدقة ودراية لما ألفه ابن سينا في مجالات الطبيعيات، مع الإشارة إلى مراجع قيّمة في هامش هذا الفصل تصلح عماداً لمعرفة كل ما من شأنه أن يزيدنا معرفة بما خلّفه لنا ابن سينا[٣].

وقد ابان الأستاذ الدكتور عاطف العراقي في هذا الفصل عن دراية واسعة بما نُسب لابن يسنا من كتب، ليست له، وذلك من خلال عدة تحفظات على الفهارس الحديثة لمؤلفات ابن سينا.

وهذا، بالطبع، مسعىً علميٌّ طيب لمعرفة ما تركه لنا ابن سينا ولوضع حد لمن ينسبون إلى ابن سينا ما ليس له ترويجاً لكتبهم وإعظاماً لعملهم[٤].

ثالثاً: مؤلفات ابن سينا، منهج تصنيفها: الدكتور الأب جورج شحاتة قنواتي، من الكتاب الذهبي لمهرجان ابن سينا[٥].

١- الأب جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا. القاهرة ١٩٤٩م ص٨: ١١

٢- د. محمد عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا. القاهرة ١٩٦٩م ص٣٨: ٦٩

٣- يذكر الدكتور العراقي ص٣٨، في المرجع السابق، بالهامش، ثمانيةَ مراجع لا تذكر ما ألفه ابن سينا في الطبيعيات فقط، بل كل ما ألفه، سواء في الفلسفة بفروعها المختلفة، أو في غيرها من البحوث في الدين واللغة وغيرهما.

٤- د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ص٣٩: ٤١، الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص٧، ١٥

٥- الكتاب الذهبي ص٦٥: ٧٠

رابعاً: الآثار الفارسية لابن سينا: علي أصغر حكمت، من الكتاب الذهبي[١].

هذا، وقد سبق أن عرفنا في ابن سينا كاتباً منتجاً، جمع فحدد المجاميع، وطرقَ شتى ميادين المعرفة، ومن ثم فقد جاءت مؤلفاته كدائرة معارف.

ويمكن للباحث أن يجد في سيرة حياة ابن سينا، سواء ما روي بلسانه أو عن تلميذه الجوزجاني، مصدراً يقينياً لما قد ألفه ابن سينا من كتب ورسائل، وكذلك يمكن للباحث أن يجد نفس المصدر بنفس درجة اليقين والثقة في كتب التاريخ التي أرّخت لابن سينا ولما تركه من مؤلفات، ومن هذه الكتب: وفيات الأعيان لابن خلكان. وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة. وأخبار الحكماء لابن القفطي. وتتمة صوان الحكمة للبيهقي. وخزانة الأدب للبغدادي. وتاريخ مختصر الدول لابن العبري. وشذرات الذهب لابن العماد. وروضات الجنات للخوانساري. وروضة الأفراح للشهرزوري.

ولما كان اهتمامنا الأساس متجهاً نحو " الاتجاه التجريبي في فلسفة ابن سينا "، فلسوف ننظر فيما ألف في الطبيعيات والطب، مع الإشارة إلى ما قد يكون ذا صلة بهذين العلمين من مؤلفاتٍ قد لا تدخل ضمن كتب الطبيعيات والطب.

أولاً: الشفاء:

هو أهم مؤلفات ابن سينا في " الحكمة "، وفيه أربعة أقسام هي: المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلهيات. هو " موسوعة " ضخمة في ثمانية عشر مجلداً، وصل إلينا منها نسخٌ كثيرة، ومنها ما لم يزل مبعثراً في مكتبات أوروبا والشرق.

---

١ - الكتاب الذهبي ص ٦٦: ٨٤

طُبعت الإلهيات والطبيعيات في طهران بإيران، وطُبع الفن السادس من الطبيعيات، وهو علم النفس، مع ترجمته إلى الفرنسية بعناية المستشرق بان باكوش، كما طُبع المنطق في القاهرة بمصر العام ١٩٥٣م.

والمعروف أن ابن سينا وضع في همذان طبيعيات الشفاء وإلهياته وجزءاً من منطقه، ذلك قبل أن يسجن في فردجان، ثم وضع في أصفهان تقسيم المجسطي والأرثماطيقي والموسيقى[١]، وانتهى من الحيوان والنبات في السنة التي توجّه فيها علاء الدولة للقاء سابور خواست. وهكذا تمت هذه الموسوعة الفلسفية الكبرى.

ويحتوي الشفاء على أربعة أجزاء هي: المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلهيات. وتنقسم الطبيعيات إلى ثمانية فنون، ويشتمل كل فن على مجموعة من المثالات والتي تشتمل، بدورها، على عدة فصول. فالفن الأول هو في السماع الطبيعي، والثاني في السماء والعالم، والثالث في الكون والفساد، والرابع في الأفعال والانفعالات، والخامس في المعادن والآثار العلوية، والسادس في النفس ن والسابع في النبات، والثامن في الحيوان.

ثانياً: النجاة:

١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج٣ ص٢٦، د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ص٤٣، حنا الفاخوري: تاريخ الفلسفة العربية ج٢ ص١٦٠

هو مختصر للشفاء، وقد طُبع مع القانون في الطب في روما العام ١٥٩٣م، كما طُبع في القاهرة العام ١٣٣١هـ. وضعه ابن سينا " لمن أراد أن يتميز عن العامة وينحاز إلى الخاصة، وتكون له بالأصول الحكيمية إحاطة "[١].

ثالثاً: الإشارت والتنبيهات:

هو كتابٌ صغير الحجم كثير العلم مستصعب على الفهم منطوٍ على كلام أُولي الألباب مبيّن للنكت العجيبة والفوائد الغريبة التي خلت عنها أكثر المبسوطات.

أورد المنطق في عشرة مناهج، والحكمة في عشرة أنماط "[٢]، وهذا الكتاب هو آخر ما كتب ابن سينا في الحكمة وأحسنه[٣]. طُبع في لندن العام ١٨٩٢م، وترجم قسمٌ منه إلى اللغة الفرنسية. كما طُبع في القاهرة بمصر العام ١٩٤٨م

رابعاً: دانش نامه علائي:

أغلب الظن أن هذا الكتاب هو نفسه كتاب الحكمة العلائية[١]، وهو كتاب يشتمل على بحوث في المنطق والإلهيات والطبيعيات كتبها ابن سينا، إلا أن القسم

١- ابن سينا: النجاة ص٢، ٣، حنا الفاخوري: تاريخ الفلسفة العربية ج٢ ص١٦١، د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٤٧

٢- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مجلد ١ ص٩٤، حنا الفاخوري: تاريخ الفلسفة العربية ج٢ ص١٦١

٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج١ ص٩٤، ٩٥، د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٤٨: ٥٢، ويُنظر تعليقات مهمة في هوامش / حواشي تلك الصفحات من كتاب الدكتور عاطف العراقي

الخاص الرياضيات أنجزه تلميذه أو عبيد الجوزجاني، تماماً كما قام، هو نفسه، على تحرير الأبحاث ذات التعلق بعلوم الهئية والهندسة والحساب، كما جاء في غير مصدر[٢].

وتوجد نسخٌ عديدة من هذا الكتاب في إيران في مكتبتي طهران ومشهد الرضا، كما توجد نسخ منه في مكتبة الآستانة، وله نسخة مصورة بمعهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية. طُبع الكتاب بالهند العام ١٣٠٩هـ، وقامت هيئة اليونسكو بترجمته إلى الفرنسية من الفارسية بمعاونة وزارة المعارف الإيرانية.

خامساً: الهداية:

ألّفه ابن سينا أثناء اعتقاله بقلعة فردجان، وهو يشتمل على المنطق والطبيعيات والإلهيات[٣].

سادساً:عيون الحكمة[٤]:

يعالج هذا الكتاب الأقسام التقليدية في الفلسفة الإسلامية المشائية، وهي: المنطق والطبيعيات والإلهيات، وقد جاءت المعالجة موجزة بشكل لافت للنظر.

سابعاً: حد الجسم:

١- د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٣، الكتاب الذهبي ص٨٧، Carra De Vaux: Avicenna. P١٤٦

٢- الكتاب الذهبي ص٨٧، د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٢

٣- د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٤

٤- القفطي: تاريخ الحكماء ص٢٧٢، د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٤

وهي رسالة ذَكَر الدكتور العراقي أن لها نسخةً مصورةً بمعهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، وكذلك بدار الكتب المصرية. وقد أورد ذِكرها الدكتور قنواتي ضمن رسائل ابن سينا صفحة ١٣١ تحت رقم ١٦٠[١].

ثامناً: النفس الفلكية:

وهي رسالة لها نسخ في كل من دار الكتب المصرية ومعهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية[٢].

تاسعاً: النهاية واللانهاية:

وهي رسالة لها نسخ في معهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية عن نسخة مكتبة أحمد الثالث، وكذا هناك نسخ

في دار الكتب المصرية. يقول عن هذه الرسالة الدكتور قنواتي: إن اسمها، أيضاً، رسالة في حجج المثبتين للماضي مبدأً زمانيا "[٣].

عاشراً: المختصر في علم الهيئة:

وهو كتاب يدرس علوم الفلك، كما يتضح من عنوانه، لكنه يدرس كذلك مسائل فلسفية وطبية وهندسية وجغرافية ؛ فمما له تعلق بدراسة الفلك، يتحدث

١- الأب جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٣١

٢- د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٥، د. جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٣٩ رقم ٧٤

٣- د. جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٣٩ رقم ٧٥، د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٥ رقم ٩

ابن سينا فيه عن كيفية تركيب العالم وعدد الأفلاك وموضع الشمس، وخسوف القمر وكسوف الشمس، ومد وجزر البحر وعلاقة ذلك بالقمر[١].

حادي عشر: تفسير آية " ثم استوى إلى السماء هي دخان ":

وفي هذا التفسير يشير ابن سينا إلى بعض الأصول التي قال بها في الفن الثاني من طبيعيات الشفاء والمتعلق بالسماء والعالم[٢].

ثاني عشر: رسالة الأجرام العلوية:

وتسمى، أيضاً، رسالة الفوائد في الرأي المحصل عند الأقدمين في جوهر الأجرام السماوية وبيان مذهبهم ". وأيضاً " رسالة في بيان الجوهر النفيس "[٣].

ثالث عشر: رسالة في إبطال أحكام النجوم:

وتسمى أيضاً " الإشارة إلى علم فساد أحكام النجوم "[٤].

رابع عشر: رسالة في علة قيام الأرض في وسط السماء[٥]:

خامس عشر: رسالة في أجوبة مسائل سأل عنها أبو الريحان البيروني.....[١]:

١- د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٦ رقم ١٠، الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص٢٢٩ رقم ١٦٦

٢- د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٧ رقم ١٢

٣- د. عاطف العراقي: المرجع السابق ص٥٨ رقم ١٥

٤- د. عاطف العراقي: المرجع السابق ص٥٨ رقم ١٦، الأب جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٢٣ رقم ٥٢

٥ - د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٥٩ رقم ١٧

يتناول ابن سينا في هذه الرسالة عدة أمور مُشكلة في كتاب السماء والعالم لأرسطو طلب إيضاحها أبو الريحان البيروني. يقول في أولها: حاطك الله مغبوطاً بنيل ما تهواه، وأسعفك بجميع ما تتمناه، وقسم لك سعادة الدارين، وصرف عنك جميع ما تكره في المحلين. سألتَ، أدام الله سلامتك، الإبانةَ عن مسائل ما تراه جديراً بأن يؤخذ على أرسطو طاليس، إذ تكلم عنها في كتابه الموسوم بالسماء والعالم. ولم يتأخر إصدارها إلى هذه المدة إلا لما عسى أن يقرره الفقيه المعصوم.

سادس عشر: جواب لسؤال بعض المتكلمين[٢] أو " الفضاء "[٣]:

وهي تدور حول الفضاء والخلاء وأدلة القول بهما أو نفيهما.

ومما لا شك فيه أن حياة ابن سينا قد كانت فذةً بين الفلاسفة، كما كانت نادرة بين أقطاب العلماء، فقد تعددت فيه جوانب النشاط وتنوعت صنوف المعرفة ؛ فكان الطبيب الإمام في عصره حتى عُرف بأمير الطب، وكان في الفلسفة نسيجَ وحده غير معارَض، كما كان له في السياسة رأيٌ نافذ، وكان شاعراً متصرفاً باللغتين العربية والفارسية، وكان معلماً انتظمت حوله حلقات الدرس، وقصده طلاب العلم والمعرفة من كل مكان، ما أهله لأن يكون محل الاهتمام والعناية كطبيب كما لقيها كفيلسوف، وإن كانت شخصية الطبيب أكثر وضوحاً من شخصية الفيلسوف[٤].

١- د. عاطف العراقي: المرجع السابق ص٦٤ رقم ٢٤، الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٢٧ رقم ٥٤

٢- د. عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية ص٦٩ رقم ٢٨

٣- الأب جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٣٥ رقم ٦٧

٤- الكتاب الذهبي ١٣٦ : ١٧٦، مجلة الكتاب. عدد إبريل العام ١٩٥٢م ص٤٩٧

ونعلم أن كثيرين من المؤرخين قد تحدثوا عن أثر ابن سينا في العلم والفلسفة على السواء، وكان من أشهرهم كارّا دي فو[١]، والمستشرقة الفرنسية ا.م. جواشون[٢]، والمستشرق الإيطالي فرانتشيسكو جابريالي[٣]. وقد أجمع هؤلاء، جميعاً، على أن تأثير ابن سينا في مدنية أوروبا قد بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي، ثم أمر البابا غريغوريوس التاسع بفحص كتب ورسائل ابن سينا، تلك التي خرجت منتصرةً لتصبح، بعد ذلك، جزءاً مهماً من الفلسفة الغربية، ويصبح طب ابن سينا أساساً وقاعدة للطب الغربي مدة غير قصيرة.

نظرة على كتب ابن سينا الطبية:

يستطيع الباحث في مؤلفات ابن سينا الطبية أن يجد رسائل وقصائد كثيرة مختلفة[٤]، لكننا سنمعن النظر في أهم أثرين تركهما ابن سينا، وهما: الأراجيز والقانون في الطب.

وباعتبار ابن سينا معلماً، نراه يلجأ إلى " الأراجيز " لإيداع المعلومات العلمية الطبية، وذلك لتيسير الحفظ وتقريب المعرفة.

١- راجع كتابه " ابن سينا " Carra De Vaux ; Avicenna. Paris ١٩٠٠ ولهذا الكتاب ترجمة ممتازة قام بها الراحل عادل زعيتر، وراجعها محمد عبد الغني، وصدرت عن دار بيروت العام ١٩٧٠م

٢- في كتاب لها عن ابن سينا بعنوان " فلسفة ابن سينا وأثرها في أوروبا " ترجمة رمضان لاوند. بيروت ١٩٥٠م

٣- في مقالته " العيد الألفي لابن سينا " بالمجلة الإيطالية " أوريته موديرنو (= الشرق الجديد) العام ١٩٥٠م ص١٤٩

٤- أورد الأب قنواتي هذه الرسائل والمقالات من ص١٨٠ : ١٩٢ من رقم ١٢١ : ١٣٩ وذلك في كتابه القيم " مؤلفات ابن سينا " بإشراف جامعة الدول العربية. طبعة دار المعارف بمصر العام ١٩٤٩م

وقد نعلم أن أول من استخدم الأراجيز للأغراض التعليمية هو آبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي نظم ترجمة لكتاب كليلة ودمنة وبعض الكتب الأخرى التي تُرجمت عن الفارسية، كما أن اللاحقي كتب أراجيز في الفقه نظمها تيسيراً للحفظ على صبيان البرامكة، وذلك لما في الرجز من الجرْس الموسيقي وما يتبع ذلك من معاونة الذاكرة على الحفظ وقدرتها على التذكر.

وإن كان ابن سينا قد سُبق في استعمال هذا النوع التعليمي في التأديب والعَروض والفقه والتاريخ، فإنه قد كان أول من اتخذه أداةً للتعليم في كلٍّ من الطب والمنطق، علاوة على أنه قد استعمل بعض بحور الشعر، كالكامل والطويل، في هذا الغرض[١].

وقد ترك لنا ابْن سينا حوالي عشر أرجوزات يمكن عرضها كالآتي:

- أرجوزة في التشريح:

عدد أبياتها مائة وثمانية وستون بيتاً، ومطلعها:

الحمد لله على تهذيبي،،، وعاصمي من أممٍ تهذي بي[٢]

وهذه القصيدة تتضمن معلوماتٍ في تشريح البدن، كما تتضمن تفصيلاتٍ عن العظام والعضل والأعصاب والشرايين والأوردة والدماغ.

- أرجوزة في المجربات الطبية[١]:

١- معروفٌ أن ابن سينا كان شاعراً قديراً، وقصيدته العينية المشهورة دليلٌ على شاعريته الصادقة وإحساسه الدقيق. راجع في ذلك: الكتاب الذهبي ص١١٧: ١٢١، ١٣٧ وما بعدها

٢- الأب جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧١ رقم ١١٢، الكتاب الذهبي ص١٤٠

هكذا أورد عنوانها الأب جورج قنواتي، وأورد عنوانها شارل كونس تحت عبارة " في المجربات ". وعدد أبياتها مائتان واثنان وخمسون بيتاً، أولها:

بدأت باسم الله في النظم الحسن،،، أذكرُ ما جربتُه طول الزمن

ما هو بالطبع وبالخـــواص،،، لكل عامي وكل خـــاص

وتنتهي بقوله:

هذا الذي جربتُه في عمـــري،،، نظمته للمقتفي في إثـري[٢]

الحمد لله على إنعـــــام،،، ثم صلاة الله مع ســلام

على النبي المصطفى المختار،،، وآله الأكارم الأخيـــار

الأرجوزة في الطب[٣]:

هكذا أورد عنوانها الأب قنواتي وقال إنها الألفية الطبية المشهورة، وأورد شارل كونس العنوان تحت قوله " الأرجوزة الكبرى وتسمى الألفية ". وعدد أبياتها ألف وثلاث مائة وستة عشر بيتاً، وأولها:

الطب حفظُ صحةٍ برء مرض،،، من سبب في بدن من عَرض

١- الأب جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧١ رقم ١١٢، الكتاب الذهبي ص١٤٠

٢- في مرجع الأب قنواتي " مؤلفات ابن سينا " نظْمُه للمقتفي لأثري ".

٣- الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧٢ رقم ١١٤، الكتاب الذهبي ص١٣٩،

الأب جورج قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧٢ رقم ١١٤، الكتاب الذهبي ص١٣٩

ونجد في بعض النسخ مقدمة أولها:

الحمد لله المليك الواحـــــد،،، رب السموات العلي الماجـد

وتنتهي بقوله:

وقد فرغتُ من جميع العمل،،، والآن أقطعه بقول مكمـــــل

وهذه الأرجوزة مقسومة قسمين: قسم علمي، وآخر عملي. ويبتدئ أولهما بذكر الأمور الطبيعية، شاملاً كل المسائل الطبية مع الإيجاز الذي يقتضيه النظم، بذكر الأركان، ثم يذكر الأمزجة وتأثيرها، ويمضي حتى يذكر أوجه العمل عند الحكم بأدلة. هذا عن القسم العلمي، أما القسم العملي، فيبتدئ بتقسيم العمل إلى قسمين: قسم فيما يُعمل باليد، وقسم فيما يعالَج بالدواء إلى أن يصل إلى علاجات العظام.

- الأرجوزة في الطب[١]:

هكذا أورد عنوانها الأب جورج قنواتي، كما قال إن عنوانها هو " الفصول الأربعة ". أما شارل كونس فقد أوردها تحت عنوان " أرجوزة في الفصول الأربعة ". عدد أبياتها مائة وأربعون بيتاً، وأولها:

يقول راجي عفو ربه،،، ابن سينـا ولم يزل بالله مستعينـــــا

يا سائلي عن صحة الأجســاد،،، اسمعْ صحيح الطب بالإسناد وتنتهي بقوله:

---

١ – الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧٧ رقم ١١٨، الكتاب الذهبي ص ١٤٠

فهكذا علمني العليـــــــم،،، وقال احفظْ ما حكى الحكيـم

من علم بقراط وجالينـــوس،،، وفضل سقراط وبطليمـوس

هذا عن شارل كونس، أما الأب قنواتي فيراها تنتهي بقوله[١]:

فأعطه الخطمى وزد الـورد،،، ودهن الورد وشراب الـورد

والعود والصندل والسفرجـل،،، فيا لشفاء لدائه معجـــــل

وتلك الأرجوزة تتناول اختلاف تدبير الصحة بحسب الفصول السنوية المختلفة التي تؤثر في البدن. ويرى شارل كونس أن هذا الأمر الطبي كان يقوم به أطباء اليونان، وقد تركوا فيه أقوالاً ورسائل نقّحها، بعد، ابن سينا وزاد عليها نصائح كثيرة جديدة ومفيدة.

- الأرجوزة في الباه:

وأولها:

يا سائلي عن وجعٍ في الوسـط،،، أو نقطة تأتي له لم تحط

أو ألم في الظهر أو في الركب،،، أو وجع في صلبه ركب

وآخرها:

وآله وصحبه الأبـــــرار،،، باكور والليل على النهـار

١- الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧٨، ١٧٩

وهي تتناول أسباب انحطاط / ضعف قوة الباه[١]

- الأرجوزة في الطب[٢]:

وعدد أبياتها مائة وواحد وخمسون بيتاً، أولها:

اسمعْ جميعَ وصيتي واعملْ بها،،، فالطب مجموع بنص كلامي

قدم على الطب المريض عنايته،،، في حفظ صحته مع الأيام

وتنتهي بقوله:

فالعقد تبديلُ المزاج،،، وحله يشفي المريض والأوهام

- أرجوزة في الوصايا الطبية[٣]:

وتبدأ بقوله:

أول يومٍ تنزل الشمس الحمل،،، تشرب ماء فاتراً على عجل

وإن تدع فيه شراب الورد،،، تأمن من الحمى ونغص البرد

١- الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧٦ رقم ١١٦ والباه: هو من الأسماء التي أُطلقت على الجنس في صورته العملية الخالصة. وهو علم يبحث في كيفية المعالجة المتعلقة بقوة المباشرة من الأغذية المصلِحة لتلك القوة، وكذا يبحث في الأدوية المقوية، والمزيدة، للقوة، أو الملذذة للجماع، أو المعظّمة، أو المضيّقة. وغير ذلك من الأعمال والأشكال المتعلقة بها، كذكر أشكال الجماع، وآدابه اللذيْن لهما مدخل في اللذة.

٢- الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧٧ رقم ١١٧

٣- الأب قنواتي: المرجع السابق ص١٧٩ رقم ١١٩

وإن رأيت الشمس بالميزان،،، فاستعملْ الفيء مع الأزمـــان

وتنتهي بقوله:

وطبه الأنس مع النكـــاح،،، مع كل كاعـــــــبٍ رواح

وتلك الأرجوزة ألفت في تحديد الأوقات المختارة، والمناسبة، لتعاطي الأدوية.

- أرجوزة في الاستدلال على صحة البدن عن طريق النبض أو البول[١]:

وعدد أبياتها مائة وأحد عش بيتاً، تبدأ بقول ابن سينا:

وبعد فالنبض دليلٌ صادق،،، يعرفه من الأطباء كل حاذق

وتنتهي بقوله:

وآن أن نختم ما نظمتـــه،،، بحمد مولانا تعالى وذكـــره

- أرجوزة في الذخيرة[٢]:

وتقع هذه الأرجوزة في مائة بيت. ويذهب كونس إلى القول إن حجر الذخيرة هذا دواء مركّب لعلاج البدن، لكنه يشكك في نسبتة هذه القصيدة لابن سينا، ذلك لأنها، برأي كونس، تحوي كلماتٍ مستحدثة وتراكيب عامة، علاوة على اختلال وزنها وضعف أسلوب تأليفها[٣].

١- الكتاب الذهبي ص١٤٠

٢- الكتاب الذهبي، الموضع السابق

٣- شارل كونس: الكتاب الذهبي ص١٤١

وأول هذه القصيدة:

يا سائلي عن حجر الذخيرة،،، فإن منافعه كثيـــــرة

من وجعٍ يكون في الوسط،،، ونقطة تأتي له لم تحط[١]

- أرجوزة في التشريح[٢]:
- أرجوزة الوصايا الطبية[٣]:
- أرجوزة لطيفة في وصايا أبقراط[٤]:

وعدد أبياتها ثمانية وأربعون بيتاً، أولها:

يا رب سر لم يزل مخزونـــا،،، مكتتماً بين الورى مكنونا

في صحفٍ محجوبة مطويـة،،، مصونة مستورة خفيـــة

ضناً بها عن كل سمع وبصر،،، غير حكيم بالأمور مختبر

وآخرها:

١- قد تكون هذه الأرجوزة هي التي ذكرها الأب جورج قنواتي في " المؤلفات " ص١٧٦ رقم ١١٦

٢- الكتاب الذهبي ص١٤١

٣- الكتاب الذهبي ص١٤١، الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٧٦ رقم ١١٩

٤- الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٨٠ رقم ١٢٠، الكتاب الذهبي ص١٤١

obeikandl.com

فهذه جملة ما كان ادخـــــر،،، من سر بقراط الحكيم واعتبر

فاحفظه إن كنت حفيظا للحكم،،، تكن في الطب رفيعاً كالعلـم

وتتناول هذه الأرجوزة وصف علامات الموت ونذره في دقة ممتازة.

*** *** *** *** *** *** ***

أما أعظم أثر تركه ابن سينا فهو كتابه الخالد القانون في الطب[١]، والذي يعتبر، بحق، موسوعة علمية كاملة في الطب، جمع فيها ابن سينا كل العلوم، فلا غرو أن يظل القانون الدستور الطبي العلمي والعملي طوال خمس مائة سنة في بلاد المسلمين والعرب، بل وفي كثير من بلاد أوروبا، وليس من قبيل المبالغة الذهاب إلى القول بأن عالَم التآليف والتصانيف لم يقع على كتاب من نوعيته، بمثل سعته وتصنيفه واشتماله على الكبيرة والصغيرة ذات التعلق بمسائل الطب.

يقول جرار دي كريمون Gerard De Crem، وهو الذي نقل القانون إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر: " وقد قضيتُ نحو من نصف قرن في تعلم اللغة

١- يقول قاموس لاروس، في تفسير كلمة القانون Le Canon: إنها كلمة يونانية تعني القاعدة، أو المرسوم، أو القاعدة المتعلقة بإيمان أو تنظيم ديني. وتعني، أيضاً، مجموعة الكتب المعتبرة، وكأنها مستوحاةٌ من الآلهة. وقد سمّى ابن سينا كتابه أولاً " القانون في حد الطب "، وهذه التسمية قد تدلنا على الطموح البعيد الذي كان ابن سينا يريده لكتابه هذا، وذلك بأن يكون= =القاعدة الفاصلة للطب عن بقية العلوم، وأن يكون أشبه بـ قرآن الأطباء، يعودون إليه كلما استعصت عليهم مشكلة ليجدوا فيه الحد والفصل في النقاش.

العربية والتوفر على ترجمة نفائس المكتبة العربية، وكان قانون الشيخ الرئيس ابن سينا أعظم كتاب لقيت في نقله مشقة وعناء، وبذلت في ذلك جهداً جباراً "[١].

ولقد لقي ذلك المترجم جزاءً طيباً ؛ فقد ظل علماء القرون الوسطى يقرأون ابن سينا من ترجمة جراردي كريمون زمناً طويلاً، كما ظل القانون موضع الدراسة والبحث والمرجع الأول في الطب في الجامعات الأوروبية حتى نهاية القرن السابع عشر للميلاد، وكانت آخر كلية طب تدرسه هي كلية طب مدينة لوفان البلجيكية في منتصف القرن الثامن عشر.

وعن كتاب القانون يقول السير وليام أوسلر الطبيب الإنجليزي الشهير: إنه كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمن. ويقول عنه براون في كتابه الطب العربي: إن طابع القانون الموسوعي وتنسيقه الدقيق وتصميمه الفلسفي، بل لعل اسلوبه العنيف في الجزم أيضاً، مضافاً إلى شهرة المؤلف في غير الطب من ميادين الفكر، كل هذا أعطى القانون مكانة فريدة في الأدب الطبي. وقد استطاع القانون، عملياً، أن ينسخ مؤلفات الرازي وعلي بن العباس[٢] بالرغم من قيمتها المعترَف بها[٣].

---

١ - الكتاب الذهبي ص١٧٨ وما بعدها

٢- هو علي بن العباس المجوسي المتوفى العام ٣٨٤هـ. له كتب طبية مختلفة أشهرها الكتاب الملكي، أو كتاب الكامل في الصناعة الطبية، ويقع في عشرين مقالة وأهمها التي تتحدث عن تدبير الجسم بالأغذية والتي عن الأقرباذين

٣- د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام. النهضة المصرية. القاهرة ١٩٦٧م ج٤ ص٥١٥: ٥١٧

وقد عرفت أوروبا ابن سينا، كما سبقت الإشارة، من ترجمة جرار دي كريمون، والذي رحل إلى طليطلة[١] وأمضى فيها خمسين عاماً في تعلم اللغة العربية وترجمة كنوزها إلى اللاتينية، ومن بينها القانون. لكن هناك من حاول " الثورة " على قانون ابن سينا ؛ إذ قام الطبيب السويسري الدكتور بومباستوس تيوفراستوس باراسيليز (١٤٩٣م: ١٥٤١م) بإحراق كتاب القانون، والذي كان أساتذة الطب في جامعة بال يتبعون قواعده ونظرياته حرفياً. وقد أُحرق القانون على يد هذا الطبيب في الرابع والعشرين من يونيه العام ١٥٢٧م، فما كان من مجلس الجامعة إلا أن ألزم باراسيلسيز تركَ الجامعة والمدينة معاً، فلجأ إلى طبيب آخر هو لورينتسيوس أفريس، والذي نشر، بعد ذلك، كتابه المشهور " دفاعٌ عن رئيس الأطباء ابن سينا ضد حملة الأطباء الألمان "، وذلك في استراسبورج العام ١٥٣٠م، ثم العام ١٥٣٢م في ليون بفرنسا[٢].

١- مدينة إسبانية قديمة للغاية، إذ أسسها الإغريق. كتبها العرب طليطلة عن الإسبانية Tholedoth وتلك عن " توليدوث " التي هي عند الرومان، وكانوا حكموا طليطلة زمناً، توليدو ومعناها المدينة المحصّنة. وهي، بالفعل، كذلك ؛ فهي تقع على مرتفع محاط بأودية وأجراف عميقة، ما ساعد في تحصينها بشكل ساق المؤرخين الرومان أن يسموها هكذا. فتحها المسلمون، بقيادة طارق بن زياد بعد معركة وادي لكة، العام ٧١٢م ، وأطلقوا عليها " مدينة الأملاك " حيث كانت مقراً لملوك القوط، وسميت، في العصور الوسطى، مدينة التسامح حيث تعايش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون. دام حكم المسلمين بطليطلة زمناً إلى أن حوصرت، العام ١٠٨٤م، على يد ألفونس السادس ملك قشتالة الذي استعان به الحاكم المسلم القادر بالله يحيى، ودام الحصار تسعة شهور، ثم استسلمت المدينة في ٢٥ مايو العام ١٠٨٥م، وانتهى بذلك الحكم الإسلامي،؛ إذ دخل ألفونسو السادس إلى المسجد الكبير، وحوله إلى كاتدرائية، وصلى فيه قداس الشكر، ثم جعل طليطلة عاصمةً لمملكة قشتالة المسيحية.

٢- مجلة الكتاب. عدد إبريل العام ١٩٥٢م ص٤٩٨: ٥٠٠

ومع انتشار كتاب القانون، ومع اشتهاره في أوروبا، نجد العلماء المهتمين به لم يكتفوا بدرسه وتدريسه، بل قاموا بعمل شروح له وتعليقات عليه، ومن هؤلاء:

١- تاديه دي فلورانس Thadee De Florence وذلك في القرن الثالث عشر.

٢- جانتيلي دي فولينيو Gentile De Foligno وذلك في القرن الرابع عشر.

٣- جينو ديل كاربو GinoDel Carbo وذلك في القرن الرابع عشر أيضاً.

٤- جيوهانس ماتيوس كراندي Johannes M atheus Crandi وذلك في القرن الرابع عشر أيضاً.

٥- جيوفاني آركولاني Giovanni Arcolani وذلك في القرن الرابع عشر أيضاً.

ثم قام الفرنسي جاك دي باريس Jaques De Paris[1] بكتابة تعليق على الكتاب العام ١٤٣٢م، وقد أمضى في ذلك إحدى وعشرين سنة، فشرح الكتاب الأول والثالث، كما شرح الفن الأول من الكتاب الرابع.

وإذا كان الكتاب قد لقي اهتماماً كبيراً من علماء الغرب فدرسوه وعلّقوا عليه وقدموا له شروحاً، فإن الباحث لا يعدم أن يجد كثيرين

من علماء العرب قد قاموا بنفس الذي قام به علما علماء الغرب ؛ فمن العلماء العرب الذين علّقوا على كتاب القانون ابن النفيس في كتابه " الموجز "، وكذا ابن زهر في كتابه " التيسير في المداواة والتدبير "، كما قام موسى بن ميمون بترجمة الكثير من أجزاء القانون إلى العبرية.

١- مجلة عالم الفكر. عدد سبتمبر العام ١٩٧٦م ص١٩٢

وقد كانت أول مرة يُطبع فيها القانون العام ١٤٧٢م في مدينة ميلانو[١]، ثم أعقب ذلك أربع عشرة طبعة أغلبها قامت به مطابع إيطاليا، ما عدا طبعة واحدة طُبعت في مدينة ليون بفرنسا العام ١٤٩٨م.

وقد كانت ترجمة جان بول مونجيوس J.P.Mangious، معتمداً عليها، بعد جيرار دي كريمون، من قِبل أساتذة وطلاب الطب في العالم، بينما كانت آخر ترجمة للقانون في غضون القرن الثامن عشر، قام بها بلامبيوس Plembius، وزاد على من سبقوه بتعليقات وشروح[٢].

وكانت أول طبعة عربية للقانون في العام ١٥٩٣م في روما، ثم طُبع في بولاق بمصر العام ١٢٩٤م. وتقع بعض نسخ القانون في حوالي ١٥٤١ صفحة من القطع الكبير بدون فواصل أو نقط وبخط صغير الحجم، ما يعني أنه لو طُبع على طريقة الكتب العلمية الحديثة ذات القطع المتوسط والخط الكبير، علاوة على الرسومات والصور، لبلغ عدد صفحاته، ربما، ما يزيد على ثلاثة آلاف صفحة.

وتقع كلماته فيما يزيد على المليون كلمة. ولو حاول الباحث قياس عبقرية ابن سينا، فسوف يبين الآتي:

أولاً: كتاب القانون ألفه ابن سينا ويقع في ١٥٤١ صفحة، بينما كتاب الأمراض الباطنة، والصادر عن دار فلاماريون في باريس، ويقع في ألفي صفحة، قام على تأليفه مائتان وخمسون عالماً.

١- مجلة عالم الفكر: عدد سبتمبر العام ١٩٧٦م ص١٩٣

٢- الكتاب الذهبي ص١٧٩

ثانياً: ألف ابن سينا هذه الموسوعة العلمية الطبية (= القانون) والأراجيز رغم ما قاساه في حياته العملية من قلاقل ومشاكل سياسية واجتماعية، وكذلك ما قام به من رحلات، وما تعرّض له من سجن وتشريد.

ثالثاً: ليس القانون المؤلَّف الوحيد لابن سينا، فقد ذخرت المكتبة العربية بأربعة وعشرين كتاباً في الفلسفة العامة، وستة وعشرين كتاباً في الفيزياء، وواحد وثلاثين كتاباً في اللاهوت، وثلاثة وعشرين كتاباً في علم النفس، وخمسة عشر كتاباً في الرياضيات، واثنين وعشرين كتاباً في المنطق، وخمسة في تفسير القرآن الكريم، وأربع عشرة مجموعة مراسلات، كل هذه الذخيرة العلمية كانت من تأليف ابن سينا[١].

ويعد القانون من أكبر كتب الطب عند العرب، ومن أهمها، لكونه غزير المادة، محكم التجزئي، حسن التنسيق. جاء في أوله قول ابن سينا " الحمد لله حمداً يستحقه بعلو شأنه وسبوغ إحسانه، والصلاة على نبيه المصطفى محمد وآله وأصحابه الطاهرين. وبعد، فقد التمس مني بعض خلص إخواني ومن يلزمني إسعافه، بما يسمح به وسعي، أن أصنف في الطب كتاباً مشتملاً على قوانينه الكلية والجزئية اشتمالاً يجمع إلى الشرح الاختصار، وإلى إيفاء الأكثر حقه من البيان الإيجاز، فأسعفته بذلك، ورأيت أن أتكلم أولاً في الأمور العامة الكلية في كلا قسمي الطب، أعني القسم النظري والقسم العملي، ثم بعد ذلك أن أتكلم في كليات أحكام قوى الأدوية المفردة، ثم في جزئياتها ثم بعد ذلك في الأمراض الواقعة بعضو عضو، فأبتدئ أولاً بتشريح ذلك العضو ومنفعته، ثم إذا فرغت من تشريح ذلك العضو ابتدأت في أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته، ثم دللت بالقول المطلق

---

١ - مجلة عالم الفكر. عدد سبتمبر العام ١٩٧٦م ص١٩٤

على كليات أمراضه وأسبابها وطرق الاستدلالات عليها وطرق معالجتها بالقول الكلي أيضاً، فإذا فرغت من هذه الأمور الكلية أقبلت على الأمور الجزئية[١].

ومما يلاحظه الباحث أن ابن سينا قد جعل الطب قسمين: نظرياً وعملياً. ثم إنه يبدأ تطبيبه بدرس كل عضو على حدة، فيقوم بتشريح هذا العضو فسيولوجيا لمعرفة وظيفته ومنافعه ثم كيفية صيانته أو وقايته، ثم ما يعتريه من أمراض وكيف السبيل إلى علاجها إذا ما وقعت.

وإذا كان البحث الدقيق لم يصل بنا إلى معرفة الحد الفاصل[٢] بين ما نقله ابن سينا من آراء ونظريات سابقيه، وبين ما ابتكره هو، فإننا سنجد أن ابن سينا لم يكن مجرد ناقل أو جامع، بل كانت له في القانون آراؤه الخاصة ونظرياته وتجاربه التي تستحق الإشادة، علاوة على أن ابن سينا لم يكن ينسب إلى نفسه غير ما أبدع هو وأنجزَ. وكثيراً ما يجد الباحث في صفحات القانون مناقشات لمن سبقه من العلماء، إما بذكر أسمائهم كأن يقول: أما الحكيم الفاضل جالينوس فقد قال، أو يقول: ويعتقد ديسقوريدس، أو يقول: وذكر ماسرجويه أو ابن جريج أو ابن ماسويه. ثم بعد أن يعرض ما قاله هذا الحكيم أو ذاك يقول: ونحن نقول. وهذا معناه أن ابن سينا قد تمكّن، عبْر تجاربه الخاصة، أن يصل إلى نتائج يخالف بها آراء من سبقه، فإذا غاب عنه اسم حكيم سابق أشار بقوله " ويزعم بعض الناس "[٣].

١- مجلة عالم الفكر. عدد سبتمبر العام ١٩٧٦م ص١٩٥، أبو الفتوح التوانسي: من أعلام الطب العربي ص١٠٢، ١٠٣

٢- الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص٧ من التصدير للأستاذ أحمد أمين

٣- مجلة عالم الفكر. عدد سبتمبر ١٩٧٦م ص١٩٦، الكتاب الذهبي ص١٨٢

ويقع القانون في خمسة كتب وعدد كبير من الفنون والتعاليم والجُمل والمقالات والفصول[١]. ويمكن عرضها، بالأساس، على الوجه الآتي:

الكتاب الأول: في الأمور الكلية من علم الطب، وهو ينقسم إلى فنون أربعة:

الفن الأول: يتضمن ستة تعاليم:

التعليم الأول: في تعريف الطب وموضوعاته

التعليم الثاني: في الأركان

التعليم الثالث: في الأمزجة

التعليم الرابع: في الأخلاط

التعليم الخامس: في ماهية العضو وأقسامه، والعظام والعضلات والشرايين والأعصاب والأوردة

التعليم السادس: في القوى والأفعال

الفن الثاني: في تصنيف الأمراض المختلفة وأسبابها وأعراضها

الفن الثالث: في التدبير المشترك، أو في أسباب الصحة والمرض

الفن الرابع: في قوانين المعالجات. وهو يتضمن وجود المعالجات، وذلك بحسْب الأمراض الكلية

١- الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٩٢، الكتاب الذهبي ص١٧٩، ٤٨٩: ٤٩٧، أبو الفتوح التوانسي: من أعلام الطب العربي ص١٠٣

obeikandl.com

الكتاب الثاني: في الأدوية المفردة وأمزجتها والقياس بها والتجربة عليها، وهي على حروف المعجم. وهذا الكتاب مقسّم إلى جملتين فيما يمكن أن نسميه اليوم " دستور الأدوية " Codex:

الجملة الأولى: في القوانين التي يجب أن تُعرَف في أمر الطب

الجملة الثانية: في قوى الأدوية الجزئية

الكتاب الثالث: في الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الجسم، وهو عبارة عن وصفٍ شامل للأمراض الواقعة. وينقسم هذا الكتاب إلى اثنين وعشرين فناً:

الفن الأول: في أمراض الرأس والدماغ

الفن الثاني: في أمراض العصب

الفن الثالث: في تشريح العين وأحوالها وأمراضها

الفن الرابع: في أحوال الأذُن

الفن الخامس: في أحوال الأنف

الفن السادس: في أحوال الفم واللسنان

الفن السابع: في أحوال الأسنان

الفن الثامن: في أحوال اللثة والشفتين

الفن التاسع: في أحوال الحلْق

obeikandl.com

الفن العاشر: في أحوال الرئة والصدر

الفن الحادي عشر: في أحوال القلب

الفن الثاني عشر: في أحوال الثدي وأمراضه

الفن الثالث عشر: في أحوال المريء والمعدة وأمراضهما

الفن الرابع عشر: في أحوال االكبد

الفن الخامس عشر: في أحوال المرارة والطحال

الفن السادس عشر: في أحوال الأمعاء والمقعدة

الفن السابع عشر: في علل المقعدة

الفن الثامن عشر: في أحوال الكُلية

الفن التاسع عشر: في أحوال المثانة والبول

الفن العشرون: في أحوال أعضاء التناسل في الذكور

الفن الحادي والعشرون: في أحوال أعضاء التناسل في الإناث، أو في أحوال الرحم وأمراضه

الفن الثاني والعشرون: في بعض الأمراض العامة

الكتاب الرابع: في الأمراض الجزئية التي إذا وقعت لم تختص بعضو. وهو يحتوي على سبعة فنون:

obeikandl.com

الفن الأول: كلام في الحميات

الفن الثاني: في مقدمة المعرفة وأحكام البحران

الفن الثالث: كلام مشبع في الأورام والبثور

الفن الرابع: في تفرّق الاتصال سوى ما يتعلق بالكسر والجبر

الفن الخامس: في الجبر

الفن السادس: كلام مجمل في السموم

الفن السابع ك في الزينة

الكتاب الخامس: في الأدوية المركّبة، أو في الأقرباذين. وقد قدّم له ابن سينا بفصلٍ في كيفية التركيب ثم جعله جملتين:

الجملة الأولى: في المركّبات الراتبة في الأقرباذين. وهي اثنتا عشرة مقالة.

الجملة الثانية: في الأدوية المجربة في مرضٍ مرض. وهي عشر مقالات، ثم ألحقَ ابن سينا بذلك كله ذِكراً للأوزان والمكاييل مأخوذة عن كناش يوحنا بن سرافيون.[1]

---

١ – عن هذه المؤلفات، راجعْ: الأب قنواتي: مؤلفات ابن سينا ص١٩٢: ١٩٥، الكتاب الذهبي ص١٧٩: ١٨١، مجلة عالم الفكر. عدد سبتمبر العام ١٩٧٦م ص١٩٦، ١٩٧، أبو الفتوح التوانسي: من أعلام الطب العربي ص١٠١: ١٠٤